حُسْنُ الإِفَادَةِ

فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الشِّرْكِ وَمَفْهُومِ الْعِبَادَةِ

تَأْلِيف:

عَبْدالرَّحْمَن بْن حَسَن الأَثَرِي



للنشر والتوزيع والطباعة

مقديشو - الصومال



عنوان الكتاب : حُسْنُ الْإِفَادَةِ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الشِّرْكِ وَمَفْهُومِ الْعِبَادَةِ

تأليف : عَبْدالرَّحْمَن بْن حَسَن الأَثَرِي

عدد الصفحات : ١٣٤

مقياس الصفحة : ١٧سم × ٢٤سم

الطبعة : الأولى

سنة الطباعة : ١٤٤٢هـ

بلد الطباعة : مقديشو - الصومال

الناشر : دار النبيلة

دار النبيلة للنشر والتوزيع والطباعة

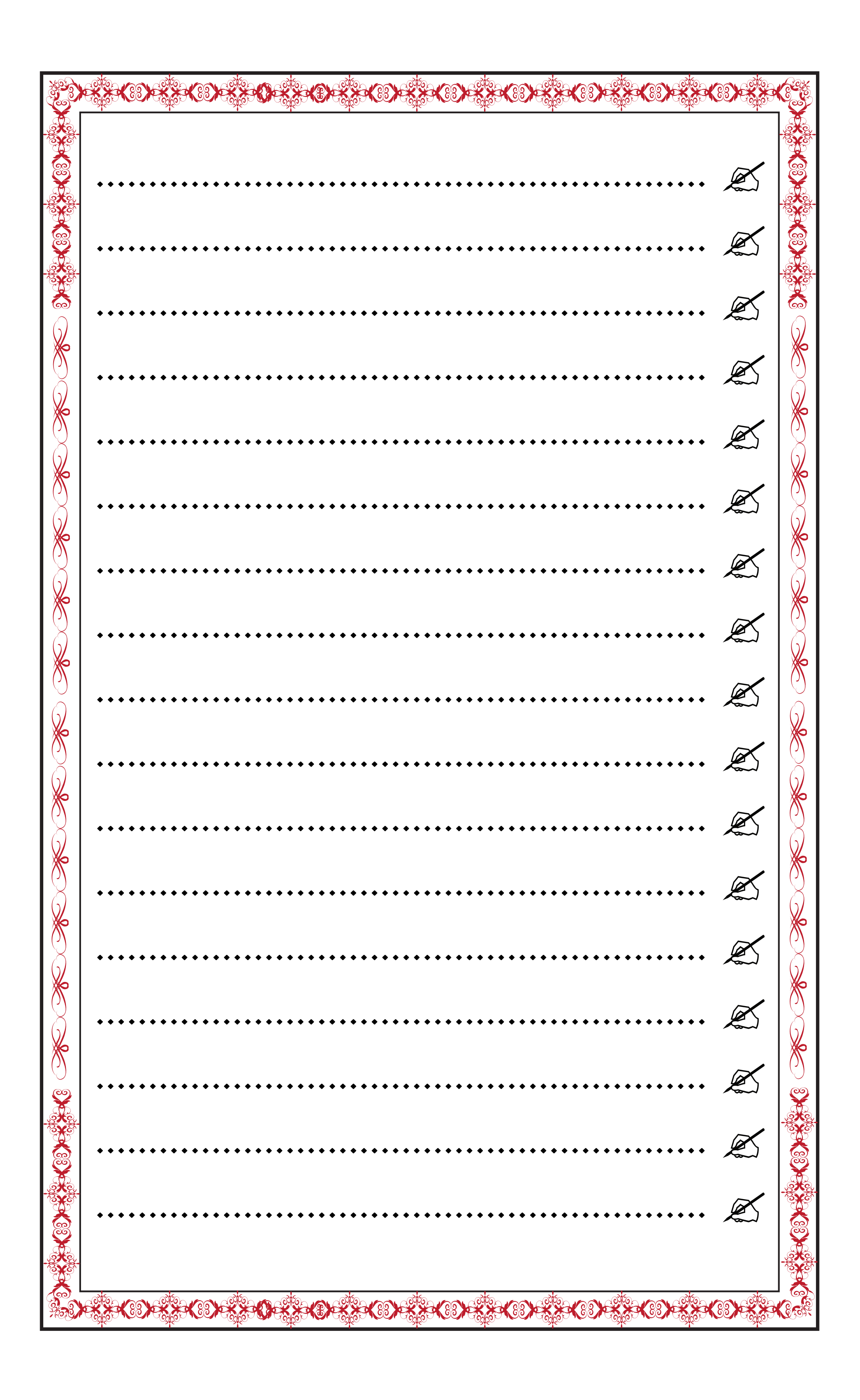
مقديشو - الصومال

(+252) 617 49 96 86 / 612 54 66 64 alnabiilabooks@gmail.com

سوق بكارو - قرب مسجد أبي هريرة | Suuqa bakaaro - Masjidka Abiihureyra

https://t.me/Alnabila @alnebila @alnebila


بسم الله الرحمن الرحيم





بسم الله الرحمن الرحيم

الْمُقَدِّمَةُ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

[آل عِمْرَانَ: ١٠٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النِّسَاء: ١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

ثُمَّ أَمَّا بَعْدُ: فَهَذِهِ رِسَالَةٌ مُخْتَصَرَةٌ فِي الِاعْتِقَادِ سَمَّيْتُهَا: «حُسْنُ الْإِفَادَةِ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الشِّرْكِ وَمَفْهُومِ الْعِبَادَةِ».

وَقَدْ كَانَ الْبَاعِثُ عَلَيْهَا مَا أَعْتَقِدُهُ مِنْ أَنَّ الْكَلَامَ فِي «**بَيَانِ حَقِيقَةِ الشِّرْكِ وَمَفْهُومِ الْعِبَادَةِ**» فِي وَقْتٍ تَقَهْقَرَتْ فِيهِ الثَّوَابِتُ، وَتَكَاثَرَتْ فِيهِ الْمِحَنُ وَالنَّوَازِلُ، وَتُنُوسِيَتْ عِنْدَهُ الْأُصُولُ وَالْقَوَاعِدُ - صَارَ أَمْرًا مُتَعَيِّنًا شَرْعًا وَعَقْلًا.

وَقَدْ كُتِبَتْ بِقَلَمِ الشَّفَقَةِ عَلَى النَّفْسِ وَالْغَيْرِ مِمَّا نَسْمَعُ وَنَرَى مِنَ الْمُهْلِكَاتِ لِدِينِ الْعَبْدِ وَدُنْيَاهُ؛ فَلَا شَكَّ أَنَّ الشِّرْكَ يُنَاقِضُ الْإِيمَانَ بِأُلُوهِيَّةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَإِذَا كَانَ الْإِيمَانُ بِأُلُوهِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ أَهَمَّ الْوَاجِبَاتِ وَأَعْظَمَهَا، فَإِنَّ الشِّرْكَ أَكْبَرُ الْمَعَاصِي عِنْدَ اللَّهِ - تَعَالَى -؛ فَهُوَ الذَّنْبُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ قَالَ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النِّسَاء: ٤٨].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن

يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النِّسَاء: ١١٦].

وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لُقْمَان: ١٣].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ(١).

وَالشِّرْكُ يُفْسِدُ الطَّاعَاتِ وَيُبْطِلُهَا؛ كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ٨٨].

وَالشِّرْكُ يُوجِبُ لِصَاحِبِهِ الْخُلُودَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؛ حَيْثُ قَالَ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [الْمَائِدَة: ٧٢].

وَالشِّرْكُ يَجْعَلُ صَاحِبَهُ عُرْضَةً لِلْآفَاتِ وَالْبَلِيَّاتِ؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الْحَجّ: ٣١].

قَالَ الْعَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرٍ السَّعْدِيُّ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فَمَثَلُهُ ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أَيْ: سَقَطَ مِنْهَا ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ بِسُرْعَةٍ ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾؛ أَيْ: بَعِيدٍ، كَذَلِكَ

(١) صحيح البخاري (٤٥١٧)، وصحيح مسلم (٢٦٧).

الْمُشْرِكُ؛ فَالْإِيمَانُ بِمَنْزِلَةِ السَّمَاءِ، مَحْفُوظَةٌ مَرْفُوعَةٌ. وَمَنْ تَرَكَ الْإِيمَانَ بِمَنْزِلَةِ السَّاقِطِ مِنَ السَّمَاءِ، عُرْضَةٌ لِلْآفَاتِ وَالْبَلِيَّاتِ؛ فَإِمَّا أَنْ تَخْطَفَهُ الطَّيْرُ، فَتُقَطِّعَهُ أَعْضَاءً، كَذَلِكَ الْمُشْرِكُ إِذَا تَرَكَ الِاعْتِصَامَ بِالْإِيمَانِ، تَخَطَّفَتْهُ الشَّيَاطِينُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَمَزَّقُوهُ، وَأَذْهَبُوا عَلَيْهِ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ. اهـ[(١)].

هَذَا وَإِنَّ الْفِتْنَةَ بِالْقُبُورِ كَالْفِتْنَةِ بِالْأَصْنَامِ، بَلْ هِيَ أَشَدُّ؛ فَإِنَّ الشِّرْكَ بِقَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ يُعْتَقَدُ صَلَاحُهُ أَقْرَبُ إِلَى النُّفُوسِ مِنَ الشِّرْكِ بِخَشَبَةٍ أَوْ حَجَرٍ؛ وَلِهَذَا نَجِدُ أَهْلَ الشِّرْكِ يَتَضَرَّعُونَ وَيَخْشَعُونَ عِنْدَ قُبُورِ الصَّالِحِينَ خُشُوعًا لَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي بُيُوتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَحْلِفُونَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمَقْبُورِينَ، وَيَدْعُونَهُمْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَيَذْبَحُونَ وَيَنْذِرُونَ لَهُمْ، وَيُنْفِقُونَ الْأَمْوَالَ الطَّائِلَةَ تَقَرُّبًا لَهُمْ.

وَلِأَجْلِ وَأْدِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْعُظْمَى وَدَفْعِ هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ الْكُبْرَى كَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدًا فِي حَسْمِ مَادَّتَيْهِمَا حَتَّى نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ عِنْدَ الْقُبُورِ، وَاتِّخَاذِهَا مَسَاجِدَ، وَبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا.

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ ثَمَّ فَرْقًا بَيْنَ مَنِ اعْتَقَدَ فِي وَثَنٍ مِنَ الْأَوْثَانِ أَنَّهُ يَضُرُّ أَوْ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ص (٥٣٨).

يَنْفَعُ، وَبَيْنَ مَنِ اعْتَقَدَ فِي مَيِّتٍ مِنْ بَنِي آدَمَ أَوْ حَيٍّ مِنْهُمْ أَنَّهُ يَضُرُّ، أَوْ يَنْفَعُ، أَوْ يَقْدِرُ عَلَى أَمْرٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَقَدْ أَخْطَأَ خَطَأً بَيِّنًا؛ فَإِنَّ الشِّرْكَ هُوَ دُعَاءُ غَيْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِهِ عَزَّوَجَلَّ، أَوِ اعْتِقَادُ الْقُدْرَةِ لِغَيْرِهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ سِوَاهُ، أَوِ التَّقَرُّبُ إِلَى غَيْرِهِ بِشَيْءٍ مِمَّا لَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَّا إِلَيْهِ.

وَالْحُكْمُ بِالشِّرْكِ يَنْبَنِي فِي الْأَسَاسِ عَلَى الْفِعْلِ الشِّرْكِيِّ، وَلَيْسَ عَلَى مُجَرَّدِ إِطْلَاقِ بَعْضِ الْمُسَمَّيَاتِ؛ فَالْحُكْمُ وَاحِدٌ إِذَا حَصَلَ لِمَنْ يَعْتَقِدُ فِي الْوَلِيِّ وَالْقَبْرِ مَا كَانَ يَحْصُلُ لِمَنْ كَانَ يَعْتَقِدُ فِي الصَّنَمِ وَالْوَثَنِ؛ فَالشِّرْكُ هُوَ أَنْ يُفْعَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سَوَاءٌ أُطْلِقَ عَلَى ذَلِكَ الْغَيْرِ مَا كَانَ يُطْلِقُهُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، أَوْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمٌ آخَرُ.

فَالشِّرْكُ هُوَ التَّسْوِيَةُ، وَقَدْ سُمِّيَ شِرْكًا؛ لِأَنَّ فِيهِ تَسْوِيَةً لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ عَزَّوَجَلَّ؛ قَالَ - تَعَالَى- عَنْ أَهْلِ النَّارِ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٢-٩٨]. فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ؛ أَيْ جَعَلُوا غَيْرَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مُسَاوِيًا لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ أُلُوهِيَّتِهِ، أَوْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ الشِّرْكَ أَنْوَاعٌ ثَلَاثَةٌ - شِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَشِرْكٌ فِي الْأُلُوهِيَّةِ،

وَشِرْكٌ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ - كَمَا أَنَّ التَّوْحِيدَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ، فَكُلُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ يُقَابِلُهُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ.

وَقَدْ حَاوَلْتُ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْمُخْتَصَرَةِ فِي الِاعْتِقَادِ عَرْضَ بَعْضِ الْحَقَائِقِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْعِبَادَةِ وَالشِّرْكِ فِيهَا، وَقَدْ جَعَلْتُهَا فِي مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ مَبَاحِثَ وَخَاتِمَةٍ؛ وَذَلِكَ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

الْمُقَدِّمَةُ: وَقَدْ وَضَعْتُهَا لِتَكُونَ تَوْطِئَةً لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ وَمَوْضُوعِهَا وَغَايَتِهَا.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: بَيَانُ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ:

وَقَدِ اشْتَمَلَ عَلَى أَرْبَعَةِ مَطَالِبَ؛ وَهِيَ:

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: بَيَانُ مَعْنَى الْعِبَادَةِ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: بَيَانُ مَعْنَى الْإِلَهِ وَمَعْنَى اتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: بَيَانُ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُقَيَّدُ بِاعْتِقَادٍ مَخْصُوصٍ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ وَمِحْوَرُ جَمِيعِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: بَيَانُ حَقِيقَةِ الشِّرْكِ:

وَقَدِ اشْتَمَلَ عَلَى أَرْبَعَةِ مَطَالِبَ؛ وَهِيَ:

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: صُوَرٌ مِنْ شِرْكِ الْمُشْرِكِينَ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: بَيَانُ أَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ لَمْ يَعْتَقِدُوا فِي آلِهَتِهِمْ شَيْئًا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ لَا نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا تَأْثِيرًا.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: حَقِيقَةُ الشِّرْكِ تَسْوِيَةُ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: ذِكْرُ بَعْضِ دَوَافِعِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى عِبَادَةِ الْآلِهَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: الْجَوَابُ عَنْ شُبُهَاتِ الْعَوْنِيِّ:

وَقَدِ اشْتَمَلَ عَلَى أَرْبَعَةِ مَطَالِبَ؛ وَهِيَ:

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: دَعْوَى الْعَوْنِيِّ امْتِنَاعَ اعْتِقَادِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَصْنَامِ أَنَّهَا مُجَرَّدُ جَمَادَاتٍ لَا تَعْقِلُ، وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تَضُرُّ، وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: بُطْلَانُ تَقْيِيدِ شِرْكِ الْعِبَادَةِ بِاعْتِقَادِ شَيْءٍ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي الْمَعْبُودِ.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: الرُّبُوبِيَّةُ مَنَاطُ الْأُلُوهِيَّةِ.

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: الشَّوْكَانِيُّ وَدَعْوَى حَصْرِهِ الشِّرْكَ فِي الْعِبَادَةِ بِاعْتِقَادِ التَّأْثِيرِ فِي الْمَعْبُودِ.

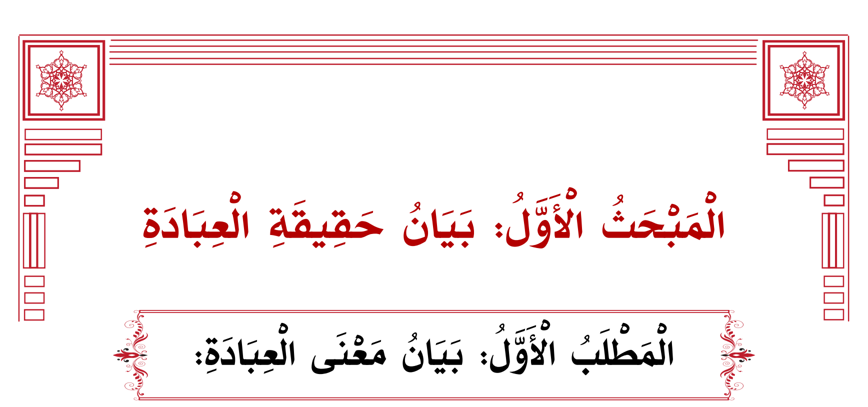
الْخَاتِمَةُ: وَقَدْ ذَكَرْتُ فِيهَا أَهَمَّ النَّتَائِجِ الَّتِي تَوَصَّلْتُ إِلَيْهَا مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ.

هَذَا وَقَدْ ذَيَّلْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بِفِهْرِسِ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ وَفِهْرِسِ الْمُحْتَوَيَاتِ.

وَاللَّهَ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ مَا سَطَّرْتُهُ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَهُوَ حَسْبُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُعِينُ مَنْ فَوَّضَ الْأَمْرَ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ، الرَّءُوفُ الْكَرِيمُ.

وَكَتَبَهَا:
عَبْدالرَّحْمَنِ بْن حَسَن الأَثَرِي
دُبَي حَرَسَهَا اللّه مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ
يَومَ الخَمِيْس ٢٩ جُمَادَى الأُوْلَى ١٤٤٢هـ





الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: بَيَانُ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: بَيَانُ مَعْنَى الْعِبَادَةِ:

أَوَّلًا: بَيَانُ مَعْنَى الْعِبَادَةِ لُغَةً:

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: «وَأَصْلُ الْعُبُودِيَّةِ: الْخُضُوعُ وَالذُّلُّ. وَالتَّعْبِيدُ: التَّذْلِيلُ؛ يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ. وَالْبَعِيرُ الْمُعَبَّدُ: الْمَهْنُوءُ بِالْقَطِرَانِ الْمُذَلَّلُ. وَالْعِبَادَةُ: الطَّاعَةُ. وَالتَّعَبُّدُ: التَّنَسُّكُ»(١).

وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ: «قَالَ الزَّجَّاجُ فِي قَوْلِ اللَّهِ - تَعَالَى -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الْفَاتِحَة: ٥] إِيَّاكَ نُطِيعُ الطَّاعَةَ الَّتِي نَخْضَعُ مَعَهَا. قَالَ: وَمَعْنَى الْعِبَادَةِ فِي اللُّغَةِ: الطَّاعَةُ مَعَ الْخُضُوعِ. وَيُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ إِذَا كَانَ مُذَلَّلًا بِكَثْرَةِ الْوَطْءِ، وَبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ إِذَا كَانَ مَطْلِيًّا بِالْقَطِرَانِ»(٢).

وَقَالَ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: «الْعُبُودِيَّةُ: إِظْهَارُ التَّذَلُّلِ، وَالْعِبَادَةُ أَبْلَغُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا غَايَةُ التَّذَلُّلِ، وَلَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا مَنْ لَهُ غَايَةُ الْإِفْضَالِ؛ وَهُوَ اللَّهُ - تَعَالَى»(٣).

---

(١) الصِّحَاح، للجوهري (عبد). (٢) تهذيب اللغة، للأزهري (٢/ ٢٣٤).
(٣) المفردات في غريب القرآن ص (٣١٩).

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ فُورَكَ: «الْعِبَادَةُ: خُضُوعُ الْقَلْبِ»[١].

وَقَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ: «الْعِبَادَةُ: غَايَةُ التَّعْظِيمِ»[٢].

ثَانِيًا: بَيَانُ مَعْنَى الْعِبَادَةِ شَرْعًا:

إِنَّ أَصْلَ إِطْلَاقِ الْعِبَادَةِ فِي الشَّرْعِ مُنْصَرِفٌ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي اخْتُصَّ اللَّهُ - تَعَالَى - بِهِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُصْرَفَ لِغَيْرِهِ؛ وَهُوَ: «كَمَالُ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالِانْقِيَادِ»، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي خَاطَبَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ أَقْوَامَهُمْ، فَفَهِمُوهُ مِنْ عِبَارَتِهِ الْأُولَى دُونَ أَنْ يَكُونَ مُصْطَلَحًا جَدِيدًا تَخْفَى عَلَيْهِمْ مَعَالِمُهُ. وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنَ الْمَعْنَى الشَّرْعِيِّ جَاءَتْ تَعْرِيفَاتُ بَعْضِ الْأَئِمَّةِ لِلْعِبَادَةِ:

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ: «مَعْنَى الْعِبَادَةِ: الْخُضُوعُ لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ، وَالتَّذَلُّلُ لَهُ بِالِاسْتِكَانَةِ»[٣].

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ: «الْعِبَادَةُ الْمَأْمُورُ بِهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الذُّلِّ وَمَعْنَى الْحُبِّ؛ فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ لِلَّهِ - تَعَالَى - بِغَايَةِ الْمَحَبَّةِ لَهُ»[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن فورك (١/ ٢٣٨).
(٢) تفسير الفخر الرازي (١٤/ ٢٣٣).
(٣) تفسير الطبري (١/ ٣٨٥).
(٤) العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص (٢٦).

وَيَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي نُونِيَّتِهِ:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ   مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ   مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ[1]

وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: «وَالْعِبَادَةُ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْخُضُوعِ، وَلَا يَجُوزُ شَرْعًا وَلَا عَقْلًا فِعْلُهَا إِلَّا لِلَّهِ - تَعَالَى -؛ لِأَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِذَلِكَ؛ لِكَوْنِهِ مُولِيًا لِأَعْظَمِ النِّعَمِ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ وَتَوَابِعِهِمَا؛ وَلِذَلِكَ يَحْرُمُ السُّجُودُ لِغَيْرِهِ - سُبْحَانَهُ -؛ لِأَنَّ وَضْعَ أَشْرَفِ الْأَعْضَاءِ عَلَى أَهْوَنِ الْأَشْيَاءِ - وَهُوَ التُّرَابُ مَوْطِئُ الْأَقْدَامِ وَالنِّعَالِ - غَايَةُ الْخُضُوعِ، وَقِيلَ: لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الْخُضُوعِ لَهُ - سُبْحَانَهُ -، وَمَا وَرَدَ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وَارِدٌ عَلَى زَعْمِهِمْ تَعْرِيضًا لَهُمْ وَنِدَاءً عَلَى غَبَاوَتِهِمْ. وَتُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الطَّاعَةِ؛ وَمِنْهُ: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]، وَبِمَعْنَى الدُّعَاءِ؛ وَمِنْهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠]، وَبِمَعْنَى التَّوْحِيدِ؛ وَمِنْهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. وَكُلُّهَا مُتَقَارِبَةُ الْمَعْنَى»[2].

وَهَذِهِ التَّعَارِيفُ هِيَ بِاعْتِبَارِ الْوَصْفِ الْقَائِمِ بِالْعَبْدِ ظَاهِرًا أَوْ بَاطِنًا،

---

(١) متن القصيدة النونية، لابن قيم الجوزية ص (٣٥).
(٢) روح المعاني، للألوسي (١/ ٨٦).

وَقَدْ تُعَرَّفُ الْعِبَادَةُ بِاعْتِبَارِ مَا يُتَعَبَّدُ بِهِ، وَلَعَلَّ أَشْمَلَ تَعْرِيفٍ لَهَا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ مَا ذَكَرَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ بِقَوْلِهِ: «الْعِبَادَةُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ - تَعَالَى - وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»(١).

وَقَدْ يَكُونُ هُنَاكَ اخْتِلَافٌ فِي عِبَارَاتِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَعْنِي التَّضَارُبَ فِي فَهْمِ مَعْنَاهَا، وَإِنَّمَا هُوَ النَّظَرُ إِلَى اعْتِبَارَاتٍ مُعَيَّنَةٍ فِي التَّعْرِيفِ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا، وَأَيْضًا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ تَصَوُّرِ الْعِبَادَةِ فِي الْإِطْلَاقِ الشَّرْعِيِّ أَكْثَرَ وُضُوحًا لَا بُدَّ مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُطْلَقَةٌ دُونَ الْإِضَافَةِ إِلَى أَحَدٍ، وَبَيْنَ تَعْرِيفِهَا بِاعْتِبَارِهَا الْعِبَادَةَ الْحَقَّةَ الْمَأْمُورَ بِهَا شَرْعًا؛ وَهِيَ الْمُضَافَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَهِيَ مِنْ حَيْثُ الْإِطْلَاقِ يَدْخُلُ فِيهَا مَا صُرِفَ مِنْهَا لِغَيْرِ اللَّهِ - تَعَالَى -؛ فَيُسَمَّى عِبَادَةً، لَكِنَّهَا عِبَادَةٌ بَاطِلَةٌ، لَا يَحْظَى مَعَهَا صَاحِبُهَا بِاسْمِ إِسْلَامٍ وَلَا إِيمَانٍ.

أَمَّا تَعْرِيفُهَا بِاعْتِبَارِهَا الْمَأْمُورَ بِهَا شَرْعًا فَالْمَعْنَى مُنْصَرِفٌ إِلَى كَوْنِهَا خَالِصَةً لِوَجْهِ اللَّهِ - تَعَالَى - مُتَّبَعًا بِهَا طَرِيقُ الْمُرْسَلِينَ، وَهُوَ الْمَعْنَى

---

(١) العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص (١٧).

الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكَهْف: ١١٠].

وَبِاسْتِصْحَابِ هَذَا التَّفْرِيقِ يَتَّضِحُ التَّنَوُّعُ فِي كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَعْرِيفِهِمْ لِلْعِبَادَةِ؛ فَمَنْ عَرَّفَهَا بِأَنَّهَا «غَايَةُ الْمَحَبَّةِ وَالْخُضُوعِ» فَهَذَا بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهَا الْمُطْلَقِ، وَمَنْ عَرَّفَهَا بِأَنَّهَا «الْخُضُوعُ لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ»، أَوْ بِأَنَّهَا «مَحَبَّةُ اللَّهِ»، أَوْ بِأَنَّهَا «طَاعَةُ اللَّهِ بِامْتِثَالِ مَا أَمَرَ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ»، أَوْ بِأَنَّهَا «إِظْهَارُ التَّذَلُّلِ لِلَّهِ - تَعَالَى»، وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَهَذَا بِاعْتِبَارِهَا الْمَأْمُورَ بِهَا شَرْعًا، وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ بِأَنَّهَا «التَّوْحِيدُ»؛ إِذِ الْعِبَادَةُ الْمَقْبُولَةُ عِنْدَ اللَّهِ - تَعَالَى - لَا تَكُونُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ.

وَهُنَاكَ تَفْرِيقٌ آخَرُ لَا بُدَّ مِنَ اسْتِصْحَابِهِ فِي تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ؛ وَقَدْ سَبَقَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ؛ وَهُوَ أَنَّ الْعِبَادَةَ تُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا «التَّعَبُّدُ»؛ وَهُوَ فِعْلُ الْعَبْدِ، وَتُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا أَيْضًا «الْمُتَعَبَّدُ بِهِ»؛ وَهُوَ صُوَرُ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْعَبْدُ مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَنَحْوِهِمَا.

وَبِهَذَا التَّفْرِيقِ يَتَّضِحُ أَلَّا تَعَارُضَ بَيْنَ تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ بِأَنَّهَا «غَايَةُ الْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ وَالِانْقِيَادِ وَالْمَحَبَّةِ» وَبَيْنَ تَعْرِيفِهَا بِأَنَّهَا «اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ - تَعَالَى - وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ

وَالظَّاهِرَةِ».

فَالْأَوَّلُ بِاعْتِبَارِ الْحَالِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ، وَالثَّانِي بِاعْتِبَارِ صُوَرِ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْعَبْدُ ظَاهِرًا أَوْ بَاطِنًا.

وَعَلَى هَذَا فَتَعْرِيفُ الْعِبَادَةِ بِأَنَّهَا «مَا أُمِرَ بِهِ شَرْعًا مِنْ غَيْرِ اطِّرَادٍ عُرْفِيٍّ أَوِ اقْتِضَاءٍ عَقْلِيٍّ» هُوَ بِاعْتِبَارِ الْأَمْرِ الثَّانِي. انْتَهَى كَلَامُ الدُّكْتُورِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُلَخَّصًا، وَمُتَصَرَّفًا فِيهِ بِشَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ، وَمُزَادًا عَلَيْهِ بَعْضُ الزِّيَادَاتِ(١).

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ إِذَا كَانَ شِرْكُ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا هُوَ عِبَادَةُ الْآلِهَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ - تَعَالَى -، فَإِنَّ حَقِيقَةَ تِلْكَ الْعِبَادَةِ - الَّتِي هِيَ فِعْلُ الْعَبْدِ - خُضُوعُهُمْ لِتِلْكَ الْآلِهَةِ وَذُلُّهُمْ لَهَا عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ طَمَعًا فِي شَفَاعَتِهَا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَتَقَرُّبًا بِعِبَادَتِهَا إِلَيْهِ - تَعَالَى -، وَلَيْسَتِ اعْتِقَادَ التَّأْثِيرِ فِيهَا كَمَا يَزْعُمُهُ الْجَهَلَةُ؛ فَإِنَّ اعْتِقَادَ اسْتِقْلَالِ الْمَعْبُودَاتِ بِالتَّأْثِيرِ سَوَاءً كَانَتْ أَصْنَامًا، أَوْ أَرْوَاحًا، أَوْ أَنْبِيَاءَ، أَوْ مَلَائِكَةً، أَوْ قُبُورًا - شِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ بِمُجَرَّدِهِ، وَلَوْ لَمْ يَصْحَبْهُ تَعَبُّدٌ وَتَذَلُّلٌ لِلْمُعْتَقَدِ فِيهِ.

وَاللَّهُ - تَعَالَى - إِنَّمَا كَفَّرَ الْمُشْرِكِينَ بِعِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ - تَعَالَى -، لَا

---

(١) انظر: شبهات المبتدعة في توحيد العبادة، للدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الهذيل (١/ ١٢٧-١٣٤).

بِاعْتِقَادَاتِهِمْ فِي تِلْكَ الْمَعْبُودَاتِ، وَالْعِبَادَةُ فِعْلٌ لَا مُجَرَّدُ اعْتِقَادٍ، لَكِنَّهُ - تَعَالَى - أَخْبَرَ عَنِ الدَّافِعِ الَّذِي دَفَعَ أَكْثَرَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى عِبَادَةِ تِلْكَ الْآلِهَةِ؛ وَهُوَ طَلَبُ الشَّفَاعَةِ وَالتَّقَرُّبِ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى -، وَهَذَا الدَّافِعُ لَمْ يَذْكُرْهُ - تَعَالَى - لِتَقْيِيدِ الشِّرْكِ بِهِ؛ بَلْ لِيُبَيِّنَ بُطْلَانَ هَذَا الدَّافِعِ وَفَسَادَهُ، وَيَقْطَعَ بِهِ أَكْبَرَ سُبُلِ الشِّرْكِ وَأَسْبَابِهِ.

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ أَيْضًا بِأَنَّ مَرَدَّ عِبَادَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - إِلَى مَا أَمَرَ وَشَرَعَ أَنْ يُتَقَرَّبَ بِهِ إِلَيْهِ؛ كَالصَّلَاةِ، وَالذَّبْحِ، وَالنَّذْرِ، وَالطَّوَافِ بِبَيْتِهِ، وَالْخُشُوعِ، وَالدُّعَاءِ، وَالِاسْتِغَاثَةِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالْخَوْفِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فِي تَفَاصِيلَ كَثِيرَةٍ، لَكِنْ يَبْقَى هَذَا التَّعْرِيفُ لِآحَادِ وَأَفْرَادِ الْعِبَادَةِ هُوَ تَعْرِيفٌ لِلْعِبَادَةِ الْمَشْرُوعَةِ، وَلَيْسَ الشِّرْكُ مُنْحَصِرًا فِيهَا؛ بِمَعْنَى أَنَّ الشِّرْكَ لَيْسَ فِي أَنْ يَصْرِفَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ لِنَفْسِهِ لِغَيْرِهِ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ الْبَاطِلَةِ؛ كَمَنْ يُصَلِّي لِغَيْرِ اللَّهِ، أَوْ يَذْبَحُ لِغَيْرِ اللَّهِ، أَوْ يَنْذِرُ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي أَمَرَ - سُبْحَانَهُ - أَنْ تُصْرَفَ لَهُ وَيُتَقَرَّبَ بِهَا إِلَيْهِ، بَلِ الشِّرْكُ يَقَعُ فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَلَوْ فِي أَمْرٍ مُبْتَدَعٍ لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ؛ كَمَنْ يَتَعَبَّدُ لِغَيْرِ اللَّهِ بِالزَّحْفِ، أَوِ الصَّمْتِ، أَوْ تَمْرِيغِ الْوَجْهِ، أَوِ الرَّقْصِ، أَوِ التَّعَرِّي، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي يَتَعَبَّدُ بِهَا الْمُشْرِكُونَ لِآلِهَتِهِمْ؛

لِأَنَّ حَقِيقَةَ فِعْلِهِمْ: خُضُوعٌ وَذُلٌّ لِغَيْرِ اللَّهِ عَلَى وَجْهِ التَّعَبُّدِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّقَرُّبِ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ، أَمَّا الْعِبَادَةُ الْمَشْرُوعَةُ فَهِيَ مَخْصُوصَةٌ بِمَا أَمَرَ بِهِ رَبُّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى.



الْمَطْلَبُ الثَّانِي:

بَيَانُ مَعْنَى الْإِلَهِ وَمَعْنَى اتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ:

أَوَّلًا: بَيَانُ مَعْنَى (الْإِلَهِ):

هُنَاكَ تَوَافُقٌ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ اللُّغَوِيِّ وَالشَّرْعِيِّ لِكَلِمَةِ (الْإِلَهِ)؛ فَكِلَاهُمَا يَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ (الْإِلَه) هُوَ الْمَعْبُودُ.

فَقَدْ قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الزَّجَّاجِيُّ: فَإِلَهٌ فِعَالٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، كَأَنَّهُ مَأْلُوهٌ؛ أَيْ: مَعْبُودٌ، مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبَادَةِ، يَعْبُدُهُ الْخَلْقُ وَيُؤَلِّهُونَهُ، وَالتَّأَلُّهُ: التَّعَبُّدُ[١].

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ: وَمَعْنَى قَوْلِنَا: (إِلَهٌ) إِنَّمَا هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، وَهُوَ - تَعَالَى - الْمُسْتَحِقُّ لَهَا دُونَ مَنْ سِوَاهُ[٢].

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ الزَّجَّاجُ هُوَ بِاعْتِبَارِ مَا عَلَيْهِ الشَّيْءُ فِي نَفْسِهِ؛ إِذْ لَا أَحَدَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبَادَةِ إِلَّا اللَّهُ - تَعَالَى -؛ فَهُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ وَحْدَهُ، وَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ الِاسْمِ وَحْدَهُ، وَلَكِنْ لَمَّا عُبِدَ غَيْرُهُ - سُبْحَانَهُ - سُمِّيَ ذَلِكَ الْمَعْبُودُ إِلَهًا بِاعْتِبَارِ الِاعْتِقَادَاتِ، وَالْأَقْوَالِ، وَالْأَفْعَالِ الْقَائِمَةِ فِي

---

(١) اشتقاق أسماء الله، لأبي القاسم الزجاجي ص (٢٤).
(٢) تفسير أسماء الله الحسنى، لأبي إسحاق الزجاج ص (٢٦).

عَابِدِهِ؛ يَقُولُ الْجَوْهَرِيُّ مُوَضِّحًا ذَلِكَ: وَالْآلِهَةُ: الْأَصْنَامُ؛ سَمَّوْهَا بِذَلِكَ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ تَحِقُّ لَهَا، وَأَسْمَاؤُهُمْ تَتْبَعُ اعْتِقَادَاتِهِمْ لَا مَا عَلَيْهِ الشَّيْءُ فِي نَفْسِهِ(١).

وَيَقُولُ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَالْإِلَهُ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَجْنَاسِ - كَالرَّجُلِ وَالْفَرَسِ - اسْمٌ يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَعْبُودٍ بِحَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ، ثُمَّ غَلَبَ عَلَى الْمَعْبُودِ بِحَقٍّ؛ كَمَا أَنَّ النَّجْمَ اسْمٌ لِكُلِّ كَوْكَبٍ، ثُمَّ غَلَبَ عَلَى الثُّرَيَّا، وَكَذَلِكَ السَّنَةُ عَلَى عَامِ الْقَحْطِ، وَالْبَيْتُ عَلَى الْكَعْبَةِ، وَالْكِتَابُ عَلَى كِتَابِ سِيبَوَيْهِ، وَأَمَّا (اللَّهُ) بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ فَمُخْتَصٌّ بِالْمَعْبُودِ بِالْحَقِّ،لَمْ يُطْلَقْ عَلَى غَيْرِهِ(٢).

وَالْإِلَاهَةُ هِيَ الْعِبَادَةُ؛ قَالَ الْفَيْرُوزْآبَادِيُّ: أَلَهَ إِلَاهَةً، وَأُلُوهَةً، وَأُلُوهِيَّةً: عَبَدَ عِبَادَةً(٣).

وَنَقَلَ ابْنُ مَنْظُورٍ عَنِ ابْنِ سِيدَهْ: وَالْإِلَاهَةُ، وَالْأُلُوهَةُ، وَالْأُلُوهِيَّةُ: الْعِبَادَةُ، وَقَدْ قُرِئَ: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٢٧]، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ» بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ؛ أَيْ: وَعِبَادَتَكَ(٤).

وَالتَّأْلِيهُ: التَّعْبِيدُ. وَالتَّأَلُّهُ: التَّنَسُّكُ وَالتَّعَبُّدُ(٥).

---

(١) الصِّحَاح، للجوهري (أله).
(٢) الكَشَّاف، لأبي القاسم الزمخشري (١/ ١٠٨).
(٣) القاموس المحيط، للفيروزآبادي (أله).
(٤) لسان العرب، لابن منظور (أله).
(٥) الصِّحَاح، للجوهري (أله).

وَلَفْظُ الْجَلَالَةِ (اللَّهُ) مُشْتَقٌّ مِنَ (الْإِلَهِ)؛ فَهُوَ ذُو الْأُلُوهِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ عَلَى خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ؛ قَالَ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: اللَّهُ قِيلَ: أَصْلُهُ إِلَهٌ؛ فَحُذِفَتْ هَمْزَتُهُ، وَأُدْخِلَ عَلَيْهِ الْأَلِفُ وَاللَّامُ، فَخُصَّ بِالْبَارِي - تَعَالَى -، وَلِتَخَصُّصِهِ بِهِ قَالَ - تَعَالَى -: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٦٥]. وَإِلَهٌ جَعَلُوهُ اسْمًا لِكُلِّ مَعْبُودٍ لَهُمْ، وَكَذَا اللَّاتُ، وَسَمَّوُا الشَّمْسَ إِلَاهَةَ لِاتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهَا مَعْبُودًا. وَأَلَهَ فُلَانٌ يَأْلَهُ: عَبَدَ، وَقِيلَ: تَأَلَّهَ. فَالْإِلَهُ عَلَى هَذَا هُوَ الْمَعْبُودُ(١).

وَقَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ: الْإِلَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَكُلُّ مَا اتُّخِذَ مِنْ دُونِهِ مَعْبُودًا إِلَهٌ عِنْدَ مُتَّخِذِهِ، وَالْجَمْعُ آلِهَةٌ، وَالْآلِهَةُ الْأَصْنَامُ؛ سُمُّوا بِذَلِكَ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ تَحِقُّ لَهَا، وَأَسْمَاؤُهُمْ تَتْبَعُ اعْتِقَادَاتِهِمْ لَا مَا عَلَيْهِ الشَّيْءُ فِي نَفْسِهِ(٢).

وَتَقَدَّمَ قَوْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ: وَأَمَّا (اللَّهُ) بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ فَمُخْتَصٌّ بِالْمَعْبُودِ بِالْحَقِّ، لَمْ يُطْلَقْ عَلَى غَيْرِهِ(٣).

فَالْحَاصِلُ أَنَّ مَدَارَ مَعْنَى (الْإِلَهِ) فِي اللُّغَةِ مُنْصَرِفٌ إِلَى الْعُبُودِيَّةِ، وَهَذَا مُطَابِقٌ لِدَلَالَاتِ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ، وَقَدْ تَضَافَرَتِ النُّقُولُ عَنْ

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ص (٢١).
(٢) لسان العرب، لابن منظور (أله).
(٣) الكَشَّاف، لأبي القاسم الزمخشري (١/ ١٠٨).

أَهْلِ السُّنَّةِ فِي تَفْسِيرِ الْأُلُوهِيَّةِ بِهَذَا الْمَعْنَى؛ فَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: أَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِ اللَّهِ - تَعَالَى -: ﴿ٱللَّهُ﴾ [الْفَاتِحَة: ١] فَإِنَّهُ عَلَى مَعْنَى مَا رُوِيَ لَنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: هُوَ الَّذِي يَأْلَهُهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَيَعْبُدُهُ كُلُّ خَلْقٍ. وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا كُرَيْبٍ حَدَّثَنَا قَالَ: حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ عُمَارَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو رَوْقٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: اللَّهُ ذُو الْأُلُوهِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ عَلَى خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ(١).

وَعَنْ قَتَادَةَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزُّخْرُف: ٨٤] قَالَ: يُعْبَدُ فِي السَّمَاءِ، وَيُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ(٢).

وَقَالَ الْإِمَامُ الْقُرْطُبِيُّ: قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٦٣] نَفْيٌ وَإِثْبَاتٌ؛ أَوَّلُهَا كُفْرٌ، وَآخِرُهَا إِيمَانٌ، وَمَعْنَاهُ: (لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ)(٣).

قُلْتُ: وَهَذَا يَجِبُ حَمْلُهُ عَلَى اعْتِبَارِ اسْتِحْقَاقِ الْعُبُودِيَّةِ؛ فَلَا مَعْبُودَ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ إِلَّا اللَّهُ تبارك وتعالى، وَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ فِي تَقْرِيرِ ذَلِكَ: وَالْإِلَهُ هُوَ بِمَعْنَى الْمَأْلُوهِ الْمَعْبُودِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، لَيْسَ هُوَ

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٢١).
(٢) تفسير الطبري (٢٠/ ٦٦٠).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢/ ٤٨٩).

الْإِلَهَ بِمَعْنَى الْقَادِرِ عَلَى الْخَلْقِ، فَإِذَا فَسَّرَ الْمُفَسِّرُ الْإِلَهَ بِمَعْنَى الْقَادِرِ عَلَى الِاخْتِرَاعِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّ هَذَا أَخَصُّ وَصْفِ الْإِلَهِ، وَجَعَلَ إِثْبَاتَ هَذَا التَّوْحِيدِ هُوَ الْغَايَةَ فِي التَّوْحِيدِ، كَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مَنْ يَفْعَلُهُ مِنْ مُتَكَلِّمَةِ الصِّفَاتِيَّةِ، وَهُوَ الَّذِي يَنْقِلُونَهُ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ وَأَتْبَاعِهِ، لَمْ يَعْرِفُوا حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ؛ فَإِنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا مُشْرِكِينَ[(١)].

وقَالَ أَيْضًا: فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْمَأْلُوهُ، وَالْمَأْلُوهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، وَكَوْنُهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ هُوَ بِمَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَحْبُوبَ غَايَةَ الْحُبِّ، الْمَخْضُوعَ لَهُ غَايَةَ الْخُضُوعِ، وَالْعِبَادَةُ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْحُبِّ بِغَايَةِ الذُّلِّ[(٢)].

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ الْمَقْرِيزِيُّ: وَالْإِلَهِيَّةُ كَوْنُ الْعِبَادِ يَتَّخِذُونَهُ - سُبْحَانَهُ - مَحْبُوبًا مَأْلُوهًا، وَيُفْرِدُونَهُ بِالْحُبِّ، وَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ، وَالْإِخْبَاتِ، وَالتَّوْبَةِ، وَالنَّذْرِ، وَالطَّاعَةِ، وَالطَّلَبِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَنَحْوِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ؛ فَإِنَّ التَّوْحِيدَ حَقِيقَتُهُ أَنْ تَرَى الْأُمُورَ كُلَّهَا مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - رُؤْيَةً تَقْطَعُ الِالْتِفَاتَ عَنِ الْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِطِ؛ فَلَا تَرَى الْخَيْرَ وَالشَّرَّ إِلَّا مِنْهُ - تَعَالَى[(٣)].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (١/ ٢٢٦).
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١٠/ ٢٤٩).
(٣) تجريد التوحيد المفيد، للمقريزي ص (٣٨).

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَنٍ: وَالْإِلَهُ هُوَ الَّذِي تَأْلَهُهُ الْقُلُوبُ بِأَيِّ نَوْعٍ كَانَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ كَمَا تَقَدَّمَ؛ فَمَنْ صَرَفَ مِنَ الْعِبَادَةِ شَيْئًا لِغَيْرِ اللَّهِ كَالدُّعَاءِ وَنَحْوِهِ، فَقَدْ أَلَهَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَاتَّخَذَهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَا يَخْتَلِفُ كَلَامُ أَهْلِ اللُّغَةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ سَلَفًا وَخَلَفًا عَنْ هَذَا الْمَعْنَى(١).

وَيُؤَكِّدُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبَابُطَيْنٍ هَذَا الْأَمْرَ، بَلْ وَيَنُصُّ عَلَى أَنَّ اجْتِمَاعَ الْعُلَمَاءِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى؛ فَقَدْ قَالَ فِي رِسَالَتِهِ فِي (مَعْنَى الْعِبَادَةِ وَالْإِخْلَاصِ): وَجَمِيعُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَشُرَّاحِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَغَيْرِهِمْ يُفَسِّرُونَ الْإِلَهَ بِأَنَّهُ الْمَعْبُودُ، وَإِنَّمَا غَلِطَ فِي ذَلِكَ بَعْضُ أَئِمَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ؛ فَظَنَّ أَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ، وَهَذِهِ زَلَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَغَلَطٌ فَاحِشٌ(٢).

فَهَذِهِ النُّقُولَاتُ وَغَيْرُهَا مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهَا - وَلَمْ أَذْكُرْهُ اخْتِصَارًا - تُبَيِّنُ بِجَلَاءٍ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَاتِّفَاقَهُمْ عَلَى مَعْنَى الْإِلَهِ بِأَنَّهُ الْمَعْبُودُ، وَبِنَظْرَةٍ - وَلَوْ عَجْلَى - إِلَى كُتُبِ التَّفْسِيرِ نَجِدُ ظُهُورَ هَذَا الْأَمْرِ بِجَلَاءٍ لَا يَخْفَى إِلَّا عَلَى غَارِقٍ فِي ظُلُمَاتِ جَهْلِهِ، أَوْ مَغْلُوبٍ بِهَوَاهُ عَلَى أَمْرِهِ، ثُمَّ

---

(١) كشف ما ألقاه إبليس من البَهْرَج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس، لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص (١٨٥).

(٢) رسالة (معنى العبادة والإخلاص) لعبد الله بن عبد الرحمن أبابطين، ضمن مجموعة التوحيد (١/ ١٦٩).

إِنَّ هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ دَلَائِلُ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ الْأَوْضَاعُ اللُّغَوِيَّةُ وَالنُّقُولَاتُ الْأَثَرِيَّةُ عَنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ .»[(١)].

ثَانِيًا: بَيَانُ مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ):

وَبَعْدَ إِذْ تَبَيَّنَ الْمُرَادُ بِكَلِمَةِ (إِلَهٍ) مُفْرَدَةً يَبْقَى الْحَدِيثُ عَنْ مَعْنَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مُجْتَمِعَةً، وَمِمَّا سَبَقَ مِنْ بَيَانٍ، فَإِنَّ مَعْنَاهَا هُوَ أَنَّهُ (لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ)، وَلَكِنْ فِي وَاقِعِ الْحَالِ فَإِنَّ هُنَاكَ مَعْبُودَاتٍ كَثِيرَةً عُبِدَتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَقَدْ أُطْلِقَ عَلَيْهَا (آلِهَةٌ)؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هُود: ١٠١]، وَفِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الْأَحْقَاف: ٢٨] إِلَّا أَنَّ إِطْلَاقَ اسْمِ الْآلِهَةِ عَلَيْهَا هُوَ بِاعْتِبَارِ وُقُوعِ الْعِبَادَةِ لَهَا دُونَ اعْتِبَارِ صِحَّةِ ذَلِكَ مِنْ عَدَمِهِ، أَمَّا بِاعْتِبَارِ الصِّحَّةِ وَالْفَسَادِ، وَالِاسْتِحْقَاقِ وَعَدَمِهِ، فَهِيَ لَيْسَتْ آلِهَةً، وَلَيْسَ لَهَا مِنْ خَصَائِصِ الْأُلُوهِيَّةِ شَيْءٌ؛ قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ذَٰلِكَ

---

(١) انظر: شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (١/ ١٣٧-١٤٧). الدُّكْتُورِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُلَخَّصًا، وَمُتَصَرَّفًا فِيهِ بِشَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ، وَمُزَادًا عَلَيْهِ بَعْضُ الزِّيَادَاتِ

بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ [الْحَجّ: ٦٢]؛ وَعَلَى هَذَا فَهُنَاكَ خَبَرٌ مُقَدَّرٌ فِي كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ إِذْ إِنَّ (لَا) هِيَ النَّافِيَةُ لِلْجِنْسِ تَعْمَلُ عَمَلَ (إِنَّ)، وَ(إِلَه) اسْمُهَا، وَالْخَبَرَ مُقَدَّرٌ بَعْدَهَا، وَقَدْ قِيلَ فِي تَقْدِيرِهِ: (مَوْجُودٌ)، وَقِيلَ: (لَنَا)، وَقِيلَ: (حَقٌّ)، وَأَصْوَبُ تِلْكَ التَّقْدِيرَاتِ كَلِمَةُ (حَقّ)؛ فَتَكُونُ الْكَلِمَةُ (لَا إِلَهَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ)، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: (لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ)، وَيُؤَيِّدُ هَذَا دَلَالَةُ الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَهَذَا التَّقْدِيرُ هُوَ مَا رَجَّحَهُ الزَّرْكَشِيُّ ﷺ فِي رِسَالَتِهِ (مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ).

وَأَرَى مِنَ الْمُنَاسِبِ هُنَا - تَوْضِيحًا لِهَذَا الْأَمْرِ - أَنْ أَنْقِلَ كَلَامَ الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ بَازٍ ﷺ عِنْدَ تَعْلِيقِهِ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي (شَرْحِ الطَّحَاوِيَّةِ)؛ حَيْثُ قَالَ: مَا قَالَهُ صَاحِبُ (الْمُنْتَخَبِ) لَيْسَ بِجَيِّدٍ، وَهَكَذَا مَا قَالَهُ النُّحَاةُ، وَأَيَّدَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ الْمُرْسِيُّ مِنْ تَقْدِيرِ الْخَبَرِ بِكَلِمَةِ (فِي الْوُجُودِ) لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّ الْآلِهَةَ الْمَعْبُودَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَثِيرَةٌ وَمَوْجُودَةٌ، وَتَقْدِيرُ الْخَبَرِ بِلَفْظِ (فِي الْوُجُودِ) لَا يَحْصُلُ بِهِ الْمَقْصُودُ مِنْ بَيَانِ أَحَقِّيَّةِ أُلُوهِيَّةِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - وَبُطْلَانِ مَا سِوَاهَا؛ لِأَنَّ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: كَيْفَ تَقُولُونَ: (لَا إِلَهَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ) وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - عَنْ وُجُودِ آلِهَةٍ كَثِيرَةٍ

لِلْمُشْرِكِينَ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ - سُبْحَانَهُ -: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [هُود: ١٠١]، وَقَوْلِهِ - سُبْحَانَهُ -: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢۖ﴾ [الْأَحْقَاف: ٢٨]؟. فَلَا سَبِيلَ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنْ هَذَا الِاعْتِرَاضِ، وَبَيَانِ عَظَمَةِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ الْمُبْطِلَةُ لِآلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ وَعِبَادَتِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا بِتَقْدِيرِ الْخَبَرِ بِغَيْرِ مَا ذَكَرَهُ النُّحَاةُ؛ وَهُوَ كَلِمَةُ (حَقّ)؛ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُوَضِّحُ بُطْلَانَ جَمِيعِ الْآلِهَةِ، وَتُبَيِّنُ أَنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ وَالْمَعْبُودَ الْحَقَّ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ؛ كَمَا نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ جَمْعٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ مِنْهُمْ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَةَ، وَتِلْمِيذُهُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ، وَآخَرُونَ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ -، وَمِنْ أَدِلَّةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ - سُبْحَانَهُ -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الْحَجّ: ٦٢]؛ فَأَوْضَحَ - سُبْحَانَهُ - فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا دَعَاهُ النَّاسُ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ؛ فَشَمِلَ ذَلِكَ جَمِيعَ الْآلِهَةِ الْمَعْبُودَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْبَشَرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَاتَّضَحَ بِذَلِكَ أَنَّهُ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ وَحْدَهُ؛ وَلِهَذَا أَنْكَرَ الْمُشْرِكُونَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، وَامْتَنَعُوا مِنَ الْإِقْرَارِ بِهَا؛ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّهَا تُبْطِلُ آلِهَتَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ فَهِمُوا أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا نَفْيُ الْأُلُوهِيَّةِ بِحَقٍّ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ -؛ وَلِهَذَا قَالُوا جَوَابًا لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لَمَّا قَالَ لَهُمْ: "قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا

اللَّهُ" : ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]، وَقَالُوا أَيْضًا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصَّافَّات: ٣٦]، وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَبِهَذَا التَّقْدِيرِ يَزُولُ جَمِيعُ الْإِشْكَالِ، وَيَتَّضِحُ الْحَقُّ الْمَطْلُوبُ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ[١].

وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ فِي مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ): أَنَّهَا نَفْيٌ لِكُلِّ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَإِثْبَاتُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ إِذْ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لَهَا، فَمَنْ صَرَفَ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - فَقَدْ أَخَلَّ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَلَمْ يُحَقِّقْهَا، وَإِثْبَاتُهَا مُتَضَمِّنٌ لِمَعْنَى رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَأَنَّ لَهُ الْأَمْرَ وَالْخَلْقَ[٢].

ثَالِثًا: بَيَانُ مَعْنَى اتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ:

قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ اتَّخَذُوا آلِهَةً مَعَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ - تَعَالَى - أَنَّ مَعْنَى اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً هُوَ أَنَّهُمْ صَرَفُوا إِلَيْهَا أَنْوَاعًا مِنَ الْعِبَادَاتِ؛ وَبِذَلِكَ كَانُوا مُشْرِكِينَ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) انظر هذا التعليق للشيخ ابن باز: في حاشية شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق الدكتور عبد الله التركي والشيخ شعيب الأرنؤوط، ص (٧٤).

(٢) انظر: شبهات المبتدعة في توحيد العبادة (١/ ١٤٧-١٥٠). كَلَامُ الدُّكْتُورِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُلَخَّصًا، وَمُتَصَرَّفًا فِيهِ بِشَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ، وَمُزَادًا عَلَيْهِ بَعْضُ الزِّيَادَاتِ

ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مَرْيَم: ٨١-٨٢].

وَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٤٥].

وَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الْمُؤْمِنُون: ١١٧].

وَمعْنَى: ﴿يَدۡعُ﴾ أَيْ يَعْبُدُ.

قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: وَقَدْ يَكُونُ الدُّعَاءُ عِبَادَةً؛ وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ - جَلَّ وَعَزَّ -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٩٤][(١)].

وَالدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ[(٢)].

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٩].

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الْأَنْعَام: ٧٤].

---

(١) تهذيب اللغة، للأزهري (٣/ ١١٩).

(٢) انظر: سنن أبي داود (١٤٨١)، وسنن الترمذي (٣٢٣٢، ٣٥٥٥، ٣٦٩٩)، وسنن ابن ماجه (٣٩٦٠).

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ أَيْضًا: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصَّافَّات: ٨٣-٨٧].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٣٩].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الْإِسْرَاء: ٤٢].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الْكَهْف: ١٥].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مَرْيَم: ٨١].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢١-٢٢].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ [الْفُرْقَان: ٣].

وَقَدْ أَثْبَتَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ اسْمَ الْآلِهَةِ لِمَعْبُودَاتِ الْمُشْرِكِينَ، لَكِنَّهُ نَفى اسْتِحْقَاقَهَا لِذَلِكَ:

إِنَّ الْآيَاتِ كَثِيرَةٌ جِدًّا فِي هَذَا الشَّأْنِ، وَهِيَ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مَعَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وتَعَالَى - سَمَّى مَعْبُودَاتِهِمُ الَّتِي عَبَدُوهَا مَعَهُ عَزَّوَجَلَّ آلِهَةً، لَمْ يَنْفِ عَنْهَا اسْمَ الْإِلَهِ، بَلْ نَفَى عَنْهَا اسْتِحْقَاقَ الْأُلُوهِيَّةِ.

قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الْحَجّ: ٦٢].

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾ [النُّور: ٢٥].



الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ:

بَيَانُ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُقَيَّدُ بِاعْتِقَادٍ مَخْصُوصٍ:

فَإِنَّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ بِأَنْ تَذَلَّلَ لَهُ وَخَضَعَ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ لَهُ وَالتَّأَلُّهِ وَالتَّعَبُّدِ فَهُوَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ، مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ سَبَبِ تَعَبُّدِهِ، أَوِ اعْتِقَادِهِ فِي الْمَعْبُودِ، بَلْ يَكْفِي اعْتِقَادُ اسْتِحْقَاقِهَا لِلتَّعْظِيمِ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ الْمُعَلِّمِيُّ الْيَمَانِي بَعْدَ بَحْثٍ طَوِيلٍ فِي شِرْكِ الْأُمَمِ وَالْعَرَبِ: فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ أَلَّهُوا الْأَصْنَامَ وَعَبَدُوهَا، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْتَقِدُوا فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ التَّعْظِيمَ؛ لِأَنَّهَا قَدْ جُعِلَتْ تَمَاثِيلَ وَتَذَاكِيرَ وَرُمُوزًا لِلْمَلَائِكَةِ أَوْ لِلْكَوَاكِبِ أَوْ لِرِجَالٍ صَالِحِينَ، وَأَنَّ قَوْمًا أَلَّهُوا الْكَوَاكِبَ وَعَبَدُوهَا، وَلَمْ يَعْتَقِدُوا فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ كَوْنِهَا أَجْسَادًا أَوْ مَظَاهِرَ لِلْمَلَائِكَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَقَدَّمَ؛ فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ تَأْلِيهَ الشَّيْءِ وَعِبَادَتَهُ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى زَعْمِهِمْ أَنَّهُ وَاجِبُ الْوُجُودِ، أَوْ أَنَّهُ الْخَالِقُ، أَوْ خَالِقٌ آخَرُ، أَوِ ابْنُ الْخَالِقِ، أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ[١].

وَقَالَ الشَّهْرَسْتَانِيُّ: وَبِالْجُمْلَةِ وَضْعُ الْأَصْنَامِ حَيْثُمَا قَدَّرُوهُ إِنَّمَا هُوَ

(١) رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله ص (٧١٢-٧١٣).

عَلَى مَعْبُودٍ غَائِبٍ حَتَّى يَكُونَ الصَّنَمُ الْمَعْمُولُ عَلَى صُورَتِهِ وَشَكْلِهِ وَهَيْئَتِهِ نَائِبًا مَنَابَهُ، وَقَائِمًا مَقَامَهُ، وَإِلَّا فَنَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ عَاقِلًا مَا لَا يَنْحِتُ جِسْمًا بِيَدِهِ وَيُصَوِّرُ صُورَةً، ثُمَّ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ إِلَهُهُ وَخَالِقُهُ، وَإِلَهُ الْكُلِّ وَخَالِقُ الْكُلِّ؛ إِذْ كَانَ وُجُودُهُ مَسْبُوقًا بِوُجُودِ صَانِعِهِ، وَشَكْلُهُ يَحْدُثُ بِصَنْعَةِ نَاحِتِهِ، لَكِنَّ الْقَوْمَ لَمَّا عَكَفُوا عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا، كَانَ عُكُوفُهُمْ ذَلِكَ عِبَادَةً، وَطَلَبُهُمُ الْحَوَائِجَ مِنْهَا إِثْبَاتَ إِلَهِيَّةٍ لَهَا، وَعَنْ هَذَا كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، فَلَوْ كَانُوا مُقْتَصِرِينَ عَلَى صُوَرِهَا فِي اعْتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ لَمَا تَعَدَّوْا عَنْهَا إِلَى رَبِّ الْأَرْبَابِ[(١)].

فَكُلُّ مَنْ تَوَجَّهَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَتَذَلَّلَ لَهُ وَخَضَعَ عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ، فَقَدْ عَبَدَهُ، دُونَ تَقْيِيدِ ذَلِكَ بِاعْتِقَادٍ مَخْصُوصٍ؛ كَاعْتِقَادِ كَوْنِهِ خَالِقًا، أَوْ مُدَبِّرًا، أَوْ مَالِكًا لِلنَّفْعِ وَالضُّرِّ، أَوْ مُسْتَقِلًّا بِالتَّأْثِيرِ، أَوْ مُفَوَّضًا مِنَ الرَّبِّ فِي النَّفْعِ وَالتَّأْثِيرِ؛ فَإِنَّ مُجَرَّدَ اعْتِقَادِ الْإِنْسَانِ اسْتِحْقَاقَ مَعْبُودِهِ لِلتَّعْظِيمِ بِالذُّلِّ وَالْخُضُوعِ لَهُ يَجْعَلُهُ مَوْصُوفًا بِعِبَادَتِهِ لَهُ مُتَلَبِّسًا بِالشِّرْكِ دُونَ النَّظَرِ إِلَى دَوَافِعِهِ إِلَى هَذَا التَّعْظِيمِ؛ إِذْ إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ بِذَبْحٍ، أَوْ نَذْرٍ، أَوِ اسْتِغَاثَةٍ، أَوْ سُجُودٍ، أَوْ رُكُوعٍ، مَعَ كَوْنِهِ لَا يَعْتَقِدُ فِيهِ شَيْئًا زَائِدًا عَنِ التَّعْظِيمِ؛ كَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ طَمَعًا فِي

(١) الْمِلَل والنِّحل، للشهرستاني (٢/ ٦١١).

مَالٍ أَوْ جَاهٍ، أَوْ يَفْعَلُهُ مُوَافَقَةً لِلْأَصْحَابِ، أَوْ تَقْلِيدًا لِلْأَسْلَافِ، بَلْ قَدْ يَفْعَلُهُ مَعَ كَوْنِهِ يَقْطَعُ بِبُطْلَانِ فِعْلِهِ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُتَكَبِّرُونَ أَوِ الْمُتَعَصِّبُونَ لِأَقْوَامِهِمْ، أَوْ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَائِفُونَ مِنْ زَوَالِ دُنْيَاهُمْ وَرِيَاسَتِهِمْ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ اللَّهُ ﷻ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ:

كَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأَنْعَام: ٣٣].

وَقَوْلِهِ فِي قَوْمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النَّمْل: ١٤].

وَمَا ذَكَرَهُ مِنْ قَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإِسْرَاء: ١٠٢].

وَمَا ذَكَرَهُ - تَعَالَى - مِنْ عِلْمِ الْيَهُودِ بِصِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ عِلْمًا يَقِينِيًّا فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الْبَقَرَة: ١٤٦]. وَفِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ أَيْضًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأَنْعَام: ٢٠].

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا إِخْبَارُهُ - تَعَالَى - عَنْ جَوَابِ الْأُمَمِ لِأَنْبِيَائِهِمْ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا

وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٢٣-٢٤].

فَإِنَّ جَوَابَهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا دَعْوَةَ أَنْبِيَائِهِمْ، وَلَوْ جَاءُوهُمْ بِالدَّلَائِلِ، وَالْبَرَاهِينِ، وَالْحُجَجِ، وَالْبَيِّنَاتِ، وَالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، بَلْ هُمْ بَاقُونَ عَلَى شِرْكِهِمْ غَيْرُ حَائِدِينَ عَنْهُ حَقًّا كَانَ أَوْ بَاطِلًا.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِكَ الْقَائِلِينَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ أَيُّهَا الْقَوْمُ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ ﴿بِأَهْدَىٰ﴾ لَكُمْ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ، وَأَدَلَّ لَكُمْ عَلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ﴾ أَنْتُمْ ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ مِنَ الدِّينِ وَالْمِلَّةِ؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ يَقُولُ: فَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ؛ فَأَجَابُوهُ بِأَنْ قَالُوا لَهُ كَمَا قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ - مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ رُسُلَهَا - لِأَنْبِيَائِهِمْ: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ يَا أَيُّهَا الْقَوْمُ ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ يَعْنِي: جَاحِدُونَ مُنْكِرُونَ[(١)].

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ٥٧٣-٥٧٤).

وَقَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ: قَالُوا عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ عِنَادًا وَتَعَنُّتًا مِنْهُمْ(١).

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: يَعْنِي أَتَتَّبِعُونَ آبَاءَكُمْ وَلَوْ جِئْتُكُمْ بِدِينٍ أَهْدَى مِنْ دِينِ آبَائِكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّا ثَابِتُونَ عَلَى دِينِ آبَائِنَا لَا نَنْفَكُّ عَنْهُ، وَإِنْ جِئْتَنَا بِمَا هُوَ أَهْدَى وَأَهْدَى(٢).

وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ - تَعَالَى - إِقْرَارَ الْعَبْدِ بِشَيْءٍ بِلِسَانِهِ مَعَ عَدَمِ اعْتِقَادِهِ بِقَلْبِهِ إِيمَانًا بِهِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - عَنِ الْيَهُودِ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾ [النِّسَاء: ٥١].

قَالَ الطَّبَرِيُّ: يَعْنِي بِذَلِكَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ -: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ بِقَلْبِكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ أُعْطُوا ﴿نَصِيبًا﴾ حَظًّا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ؛ فَعَلِمُوهُ ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ يَعْنِي: يُصَدِّقُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، وَيَكْفُرُونَ بِاللَّهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِهِمَا كُفْرٌ، وَالتَّصْدِيقَ بِهِمَا شِرْكٌ؟(٣).

وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛

(١) تأويلات أهل السنة (٩/ ١٥٩).
(٢) الكَشَّاف، لأبي القاسم الزمخشري (٥/ ٤٣٥-٤٣٦).
(٣) تفسير الطبري (٧/ ١٣٤).

يَعْنِي: عُلَمَاءَ الْيَهُودِ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾؛ أَيِ: الْأَصْنَامِ ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ سَدَنَتِهَا وَتَرَاجِمَتِهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حَالَفُوا قُرَيْشًا عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَسَجَدُوا لِأَصْنَامِ قُرَيْشٍ، وَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَهْدَى مِنْ مُحَمَّدٍ، وَأَقْوَمُ طَرِيقَةً وَدِينًا؛ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ يَعْنِي قُرَيْشًا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [1].

فَقَدْ سَمَّى اللَّهُ إِقْرَارَ الْيَهُودِ بِصِحَّةِ فِعْلِ الْمُشْرِكِينَ وَعِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ، وَزَعْمَهُمْ أَنَّهُمْ أَهْدَى مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ - إِيمَانًا، مَعَ أَنَّ الْيَهُودَ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ بِلِسَانِهِمْ، مَعَ عَدَمِ اعْتِقَادِهِ بِقُلُوبِهِمْ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْ أَنْ يُسَمَّى ذَلِكَ الْإِقْرَارُ الْقَوْلِيُّ إِيمَانًا بِالْمُقَرِّ بِهِ.

وَهَكَذَا مَنْ تَذَلَّلَ لِغَيْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَخَضَعَ لَهُ بِظَاهِرِهِ مُظْهِرًا تَعْظِيمَهُ بِفِعْلِهِ لَا بِقَلْبِهِ، فَهُوَ عَابِدٌ لَهُ مُؤْمِنٌ بِهِ.



---

(١) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للواحدي (١/ ٢٦٨-٢٦٩).

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ:

تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ وَمِحْوَرُ جَمِيعِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ:

إِنَّ تَوْحِيدَ الْعِبَادَةِ هُوَ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ، وَهُوَ مِحْوَرُ جَمِيعِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَهُوَ صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ إِلَّا بِهِ، وَمِنْ أَجْلِهِ شُرِعَ الْجِهَادُ، وَعَلَى أَسَاسِهِ رَبَّى الْأَنْبِيَاءُ أَتْبَاعَهُمْ، أَدْرَكَ ذَلِكَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ اهْتِدَاءً بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَجَهِلَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ كَثِيرٌ مِنْ أَدْعِيَاءِ الْعِلْمِ، بَعْدَ ذَهَابِ الْعُلَمَاءِ حَقًّا.

فَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ إِنَّمَا بُعِثُوا بِالدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحْل: ٣٦].

وَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الْأَحْقَاف: ٢١].

وَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢٥].

وَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ

وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [فُصِّلَت: ١٣-١٤].

وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ أَيْضًا أَنَّهُمْ إِنَّمَا دَعَوْا إِلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» الْمُقْتَضِيَةِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْآلِهَةِ بَاطِلٌ؛ فَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الْحَجّ: ٦٢].

كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ تَدُورُ حَوْلَ تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ لَا الرُّبُوبِيَّةِ:

كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ إِنَّمَا تَدُورُ حَوْلَ تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ؛ أَيْ: إِفْرَادِ اللَّهِ - تَعَالَى - بِالتَّأَلُّهِ وَالتَّعَبُّدِ وَالْعِبَادَةِ، وَتَرْكِ الْإِشْرَاكِ فِيهَا، وَلَيْسَ حَوْلَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَإِفْرَادِهِ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَالْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ، وَالنَّفْعِ وَالضُّرِّ؛ فَإِنَّ هَذَا الْجَانِبَ لَمْ يَكُنْ مَحِلَّ خِلَافٍ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَقْوَامِهِمْ.

وَقَدْ فَسَّرَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ؛ مِنْهَا:

قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٦٤].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾ [هُود: ١-٢].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الْإِسْرَاء: ٢٣].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢٨﴾ [الزُّخْرُف: ٢٦-٢٨].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يُوسُف: ٤٠].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الْأَحْقَاف: ٢١].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ [فُصِّلَت: ١٣-١٤].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي قِصَّةِ صَالِحٍ عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ﴾ [الْأَعْرَاف: ٧٠].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [النِّسَاء: ٣٦].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣١].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [الْبَيِّنَة: ٥].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤﴾ [الزُّمَر: ١١-١٤].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرَّعْد: ٣٦].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾ [الْمَائِدَة: ٧٢].

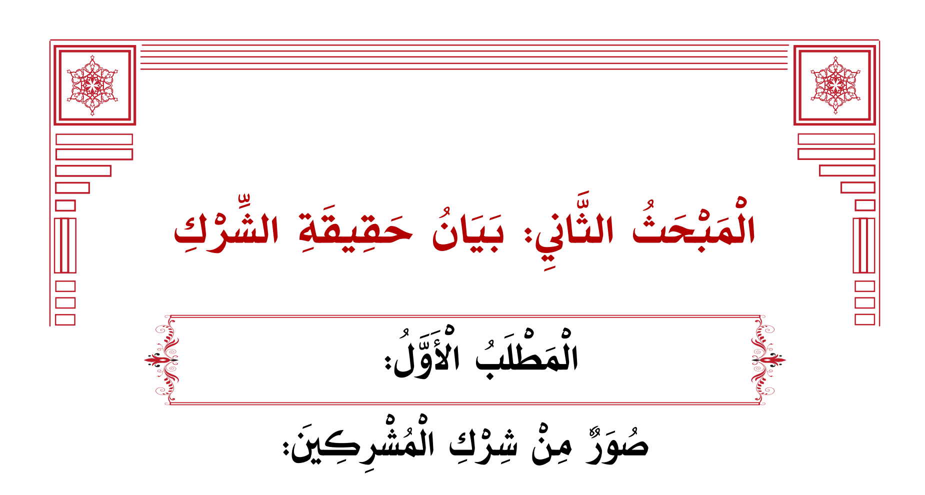
وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ﴾ [النَّحل: ٣٦].

وَقَوْلُهُ - تعَالَى -: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزُّمَر: ٢-٣].

وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ مَعْنَى كَلِمَةِ (إِلَهٍ) مُفْرَدَةً، وَمَعْنَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مُجْتَمِعَةً[1].



(١) انظر: المطلب الثاني «بَيَانُ مَعْنَى الْإِلَهِ وَمَعْنَى اتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ» في المبحث الأول «بَيَانُ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ».



الْمَبْحَثُ الثَّانِي: بَيَانُ حَقِيقَةِ الشِّرْكِ

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ:

صُوَرٌ مِنْ شِرْكِ الْمُشْرِكِينَ:

قَدْ وَصَفَ اللَّهُ - تَعَالَى - شِرْكَ الْمُشْرِكِينَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ دُونَ تَقْيِيدِهِ بِاعْتِقَادٍ مَخْصُوصٍ مِنْهُمْ فِي مَعْبُودَاتِهِمْ، وَمِمَّا يُؤَكِّدُ هَذَا أَنَّهُ - تَعَالَى - إِذَا ذَكَرَ شِرْكَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَإِنَّهُ يَصِفُهُ بِعِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ مِنْ دُعَاءٍ، وَذَبْحٍ، وَنَذْرٍ، وَاعْتِكَافٍ، وَتَوَكُّلٍ، وَخَوْفٍ، وَرَجَاءٍ، وَخُضُوعِهِمْ لِتِلْكَ الْمَعْبُودَاتِ تَعْظِيمًا لَهَا عَلَى نَحْوِ مَا يُخْضَعُ فِيهِ لَهُ ﷻ مِنْ دُونِ أَنْ يُقَيِّدَ اللَّهُ - تَعَالَى - شِرْكَهُمْ بِاعْتِقَادٍ مَخْصُوصٍ فِي مَعْبُودَاتِهِمْ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي كِتَابِهِ عُبَّادَ الْأَوْثَانِ، وَعُبَّادَ الْمَلَائِكَةِ، وَعُبَّادَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَعُبَّادَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمَعْبُودَاتِ.

وَلْنَنْظُرْ إِلَى مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَنْ شِرْكِ الْمُشْرِكِينَ:

قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزُّخْرُف: ١٩-٢٠]. فَوَصَفَ شِرْكَهُمْ بِعِبَادَةِ الْمَلَائِكَةِ.

وَقَالَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ -: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٤٥]. فَوَصَفَ شِرْكَهُمْ بِعِبَادَةِ الْآلِهَةِ.

وَقَالَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ -: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُونُس: ١٠٤-١٠٦]. فَتَبَرَّأَ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَلَمْ يَقُلْ: لَا أَعْتَقِدُ فِي مَعْبُودَاتِكُمْ مِثْلَ مَا تَعْتَقِدُونَ.

وَمِثْلُهَا قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الْكَافِرُون: ١-٦].

وَقَالَ - تَعَالَى - فِي دَعْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ فِي السِّجْنِ وَإِنْكَارِهِ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يُوسُف: ٣٩-٤٠].

وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٤-٦٦]. فَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنْهُ مُشَارَكَتَهُمْ فِي عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ، لَا فِي الِاعْتِقَادِ فِيهِمْ.

وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يُونُس: ٢٨-٢٩]. وَفِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ تَبَرُّؤُ الْمَعْبُودِينَ مِنْ عَابِدِيهِمْ، وَبَيَانُ أَنَّ شِرْكَهُمْ كَانَ بِعِبَادَةِ هَؤُلَاءِ الْمَعْبُودِينَ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ

تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الْقَصَص: ٦٢-٦٣].

وَقَوْلُهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - أَيْضًا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًاۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الْفُرْقَان: ١٧-١٩].

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النَّحْل: ٣٥]. وَفِيهِ: شِرْكُ الْعِبَادَةِ، وَشِرْكُ الطَّاعَةِ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ.

وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الْكَهْف: ١١٠]. وَالْإِلَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ؛ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ[(١)].

---

(١) انظر: المطلب الثاني «بَيَانُ مَعْنَى الْإِلَهِ وَمَعْنَى اتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ ﷻ» في المبحث الأول «بَيَانُ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ».

وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤]. فَوَصَفَ اللَّهُ ﷻ شِرْكَهُمْ بِدُعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ عِبَادَةٌ، وَبَيَّنَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - عَجْزَهُمْ عَنْ نَفْعِهِمْ بِعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الِاسْتِجَابَةِ لَهُمْ. وَأَمَّا قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ فَفِيهِ وَصْفُ دُعَائِهِمْ بِالشِّرْكِ.

قَالَ أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ الْحَنَفِيُّ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يَعْنِي: يَتَبَرَّءُونَ مِنْ عِبَادَتِكُمْ، وَيَقُولُونَ: مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ(١).

وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يَتَبَرَّءُونَ مِنْ عِبَادَتِكُمْ؛ يَقُولُونَ: مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ(٢).

وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: ٨]. أَيْ:

---

(١) بحر العلوم، لأبي الليث السمرقندي (٣ / ٨٣).
(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي (٣ / ٥٠٣).

جَعَلَ لِلَّهِ - تَعَالَى - أَنْدَادًا فِي الْعِبَادَةِ.

قَالَ أَبُو السُّعُودِ الْحَنَفِيُّ: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شُرَكَاءَ فِي الْعِبَادَةِ[(١)].

وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شُرَكَاءَ فِي الْعِبَادَةِ. وَالظَّاهِرُ مِنَ اسْتِعْمَالَاتِهِمْ إِطْلَاقُ الْأَنْدَادِ عَلَى الشُّرَكَاءِ مُطْلَقًا، وَفِي الْبَحْرِ[(٢)]: ﴿أَندَادًا﴾؛ أَيْ: أَمْثَالًا يُضَادُّ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيُعَارِضُ، قَالَ قَتَادَةُ: أَيِ الرِّجَالَ يُطِيعُهُمْ فِي الْمَعْصِيَةِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَوْثَانًا. اهـ[(٣)].

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - أَنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّمَا بُعِثُوا بِرِسَالَةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَهِيَ دَعْوَةُ أَقْوَامِهِمْ إِلَى إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ وَتَرْكِ الْإِشْرَاكِ فِيهَا، وَلَمْ يَجِيئُوا إِلَى أَقْوَامِهِمْ بِمُجَرَّدِ الِاعْتِقَادِ فِي اللَّهِ.

قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النَّحْل: ٣٦].

وَأَخْبَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - عَنْ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِقِيَامِهِمْ بِذَلِكَ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الْأَعْرَاف: ٥٩].

---

(١) تفسير أبي السعود (٧ / ٢٤٤).

(٢) أي: تفسير البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسي الْمُتَوَفَّى سنة (٧٤٥هـ).

(٣) روح المعاني، للألوسي (٢٣ / ٢٤٥).

وَقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأَعْرَاف: ٦٥].

وَقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأَعْرَاف: ٧٣].

وَقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأَعْرَاف: ٨٥].

وَقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الْعَنْكَبُوت: ١٦].

وَقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [الْمَائِدَة: ٧٢].

وَقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ﴾

[الْمَائِدَة: ١١٦-١١٧].

وَمِنْ صُوَرِ شِرْكِ الْمُشْرِكِينَ أَيْضًا مَا يَلِي:

قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأَنْعَام: ١٣٦]. وَفِيهِ إِقْرَارُ الْمُشْرِكِينَ وَاعْتِرَافُهُمْ بِفَقْرِ آلِهَتِهِمْ وَغِنَى الرَّبِّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَالَ مُجَاهِدٌ: يُسَمُّونَ لِلَّهِ جُزْءًا مِنَ الْحَرْثِ، وَلِشُرَكَائِهِمْ وَأَوْثَانِهِمْ جُزْءًا، فَمَا ذَهَبَ بِهِ الرِّيحُ مِمَّا سَمَّوْا لِلَّهِ إِلَى جُزْءِ أَوْثَانِهِمْ تَرَكُوهُ، وَمَا ذَهَبَ مِنْ جُزْءِ أَوْثَانِهِمْ إِلَى جُزْءِ اللَّهِ رَدُّوهُ، وَقَالُوا: اللَّهُ عَنْ هَذَا غَنِيٌّ(١).

وَكَلَامُ الْمُفَسِّرِينَ كَثِيرٌ فِي بَيَانِ مَعْنَى جَعْلِ الشُّرَكَاءِ مَعَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ لَا يُقْصَدُ بِهِ الِاعْتِقَادُ فِي الشُّرَكَاءِ التَّأْثِيرُ وَالْقُدْرَةُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَإِنَّمَا يُقْصَدُ بِهِ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ لَهُمْ.

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الْحِجْر: ٩٤-٩٦]. وَالْإِلَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ. وَلَمْ يَقُلْ: يَجْعَلُونَ مَعَهُ مُؤَثِّرًا، أَوْ مُدَبِّرًا، أَوْ خَالِقًا.

---

(١) تفسير الطبري (٩ / ٥٧٠ - ٥٧١).

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤﴾ [النَّحل: ٥١-٥٤]. وَالْإِلَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ، أَيْ: لَا تَتَّخِذُوا مَعْبُودَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا الْمَعْبُودُ الْحَقُّ وَاحِدٌ.

وَفِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ إِخْبَارُ اللَّهِ - تَعَالَى - عَنْ إِخْلَاصِ الْمُشْرِكِينَ فِي الشِّدَّةِ وَشِرْكِهِمْ فِي الرَّخَاءِ، لَكِنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَيْسَ مَعْنَى إِخْلَاصِهِمْ فِي الشِّدَّةِ إِقْرَارَهُمْ بِكَوْنِهِ الْمُسْتَقِلَّ بِالتَّأْثِيرِ، ثُمَّ لَمَّا كَانُوا فِي الرَّخَاءِ أَشْرَكُوا مَعَهُ فِي التَّأْثِيرِ، فَهَذَا بَاطِلٌ؛ فَإِنَّ إِخْلَاصَهُمْ فِي الشِّدَّةِ الْتِجَاؤُهُمْ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، وَدُعَاؤُهُمْ إِيَّاهُ، وَتَعَلُّقُ قُلُوبِهِمْ بِهِ دُونَ أَنْدَادِهِمْ.

قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ فَمَا تَتَضَرَّعُونَ إِلَّا إِلَيْهِ، وَالْجُؤَارُ: رَفْعُ الصَّوْتِ فِي الدُّعَاءِ وَالِاسْتِغَاثَةِ، ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم﴾ وَهُمْ كُفَّارُكُمْ ﴿بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ[1].

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (٣ / ٢٢٩ - ٢٣٠).

فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٦٥-٦٦].

وَمِثْلُهُ أَيْضًا قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الرُّوم: ٣٣-٣٤].

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَۖ﴾ [النَّحْل: ٨٦]. وَفِيهِ التَّصْرِيحُ بِأَنَّ شِرْكَهُمْ كَانَ فِي دُعَاءِ أُولَئِكَ، لَا فِي الِاعْتِقَادِ فِيهِمْ.

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غَافِر: ١٢]. أَيْ: يُشْرَكْ بِهِ فِي الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ.

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥-٦]. فَفِي الْآيَتَيْنِ الْإِشَارَةُ إِلَى شِرْكِ الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ.

وَمِنْ صُوَرِ شِرْكِ الْمُشْرِكِينَ أَيْضًا شِرْكُ الطَّاعَةِ:

قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الْأَنْعَام: ١٢١].

فَفِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حُكْمُهُ - تَعَالَى - عَلَيْهِمْ بِالشِّرْكِ؛ بِسَبَبِ طَاعَتِهِمُ الشَّيَاطِينَ فِي تَحْلِيلِ الْمَيْتَةِ؛ وَهُوَ مَا يُعْرَفُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِشِرْكِ الطَّاعَةِ؛ وَهُوَ هُنَا طَاعَةُ غَيْرِ اللَّهِ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ.

وَمِنْ شِرْكِ الطَّاعَةِ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التَّوْبَة: ٣١].

وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ عِبَادَةَ الرُّهْبَانِ بِطَاعَتِهِمْ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ؛ فَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ؛ فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ»، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ،

وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِم شَيْئًا حَرَّمُوهُ»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ أَنَّ عَدِيًّا رضي الله عنه قَالَ: فَطَرَحْتُهُ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(٢).

وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لَمْ يَعْتَقِدُوا فِي الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَالْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَاسْتِجْلَابِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ، وَالتَّأْثِيرِ، لَكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي تَحْلِيلِ الْحَرَامِ وَتَحْرِيمِ الْحَلَالِ؛ فَجَعَلَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِعْلَهُمْ ذَلِكَ عِبَادَةً لِلْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ؛ وَبِذَلِكَ كَانُوا مُشْرِكِينَ بِنَصِّ الْآيَةِ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشُّورَى: ٢١]. فَقَدْ سَمَّى اللَّهُ عز وجل مَعْبُودَاتِهِمْ شُرَكَاءَ لَهُ

(١) سنن الترمذي (٣٣٧٨).
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٩٢) رقم (٢١٨).

بِاتِّبَاعِهِمْ شَرِيعَتَهُمْ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ مَكِّيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الْقَيْسِيُّ: أَيْ بَلْ لَهُمْ شُرَكَاءُ اخْتَرَعُوا لَهُمْ دِينًا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - فَعَمِلُوا بِهِ وَقَبِلُوهُ[(١)].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الْكَهْف: ٢٦] فِيهِ شِرْكُ الطَّاعَةِ وَالْحُكْمِ.



(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٥٨٢).

الْمَطْلَبُ الثَّانِي:

بَيَانُ أَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ لَمْ يَعْتَقِدُوا فِي آلِهَتِهِمْ شَيْئًا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ لَا نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا تَأْثِيرًا:

لِنَنْظُرْ إِلَى مَا أَخْبَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - بِهِ عَنِ اعْتِقَادِ الْمُشْرِكِينَ فِي تِلْكَ الْآلِهَةِ الَّتِي عَبَدُوهَا، هَلِ اعْتَقَدُوا فِيهَا شَيْئًا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ؛ كَالْمُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالتَّأْثِيرِ، أَوِ النَّفْعِ وَالضُّرِّ، أَوِ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ، أَوِ الرِّزْقِ وَالْخَلْقِ؟ أَمْ أَنَّهُمْ تَوَجَّهُوا إِلَيْهَا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي خَصَّهَا اللَّهُ - تَعَالَى - بِذَاتِهِ عَزَّ وَجَلَّ دُونَ غَيْرِهِ؟.

قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢)﴾ [يُونُس: ٣١-٣٢].

فَفِي هَذَا النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ الْكَرِيمِ اعْتِرَافُهُمْ بِاخْتِصَاصِ اللَّهِ وَحْدَهُ بِمِلْكِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَالتَّدْبِيرِ، دُونَ آلِهَتِهِمْ.

قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ: فَأَقَرُّوا لَهُ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ سِوَى اللَّهِ ذَلِكَ؛ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يَقُولُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -

: إِذَا عَرَفْتُمْ وَأَقْرَرْتُمْ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مَا ذَكَرَ سِوَاهُ، وَعَرَفْتُمْ أَنَّ لَهُ السُّلْطَانَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى ذَلِكَ أَفَلَا تَتَّقُونَ بَوَائِقَهُ وَنِقْمَتَهُ؟ أَوْ يَقُولُ: أَفَلَا تَتَّقُونَ عِبَادَةَ غَيْرِهِ دُونَهُ وَإِشْرَاكَ غَيْرِهِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ؟ أَوْ يَقُولُ: أَفَلَا تَتَّقُونَ صَرْفَ شُكْرِهِ إِلَى غَيْرِهِ وَقَدْ أَقْرَرْتُمْ أَنَّهُ هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعَمِ لَا مَنْ تَعْبُدُونَ دُونَهُ؟!"[1].

وَقَالَ أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ الْحَنَفِيُّ: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ، فَتُوَحِّدُونَهُ؛ إِذْ تَعْلَمُونَ أَلَّا يَقْدِرَ أَحَدٌ أَنْ يَفْعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إِلَّا اللَّهُ ﷻ، وَيُقَالُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أَيْ تُطِيعُونَ اللَّهَ الَّذِي يَمْلِكُ ذَلِكَ[2].

وَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ وَمِنْهُ:

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٦١].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لُقْمَان: ٢٥].

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٩].

---

(١) تأويلات أهل السنة، لأبي منصور الماتريدي (٦/ ٣٨-٣٩).
(٢) بحر العلوم، لأبي الليث السمرقندي (٢/ ٩٧).

وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٦٣].

وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٨٧].

وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الْمُؤْمِنُون: ٨٤-٨٩].

فَفِي جَمِيعِ هَذِهِ الْآيَاتِ اعْتِرَافُ الْمُشْرِكِينَ وَإِقْرَارُهُمْ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَفَرُّدِهِ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالتَّدْبِيرِ، وَالتَّصَرُّفِ وَالتَّأْثِيرِ، وَالنَّفْعِ وَالضُّرِّ، وَالْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْتَقِدُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فِي آلِهَتِهِمُ الَّتِي عَبَدُوهَا.

مُحَاجَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ عَلَى بُطْلَانِ أُلُوهِيَّةِ مَا سِوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِعَجْزِ آلِهَتِهِمْ:

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - احْتِجَاجَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمِهِ بِهَذَا

الِاعْتِرَافِ وَالْإِقْرَارِ مِنْهُمْ عَلَى بُطْلَانِ أُلُوهِيَّةِ مَا سِوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَقَالَ حَاكِيًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُحَاجَّتِهِ لِقَوْمِهِ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٦٩-٧٤].

قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَفِي الْكَلَامِ مَتْرُوكٌ؛ اسْتُغْنِيَ بِدَلَالَةِ مَا ذُكِرَ عَمَّا تُرِكَ؛ وَذَلِكَ جَوَابُهُمْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ مَسْأَلَتِهِ إِيَّاهُمْ: ﴿... هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾؟ فَكَانَ جَوَابُهُمْ إِيَّاهُ: (لَا، مَا يَسْمَعُونَنَا إِذَا دَعَوْنَاهُمْ، وَلَا يَنْفَعُونَنَا وَلَا يَضُرُّونَ)، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ بِذَلِكَ أَجَابُوهُ قَوْلُهُمْ: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ وَذَلِكَ أَنَّ (بَلْ) رُجُوعٌ عَنْ مَجْحُودٍ؛ كَقَوْلِ الْقَائِلِ: مَا كَانَ كَذَا، بَلْ كَذَا وَكَذَا[1].

وَقَالَ أَبُو الْمُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ: قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ مَعْنَاهُ: أَنَّهَا لَا تَسْمَعُ أَقْوَالَنَا، وَلَا تَجْلِبُ إِلَيْنَا نَفْعًا، وَلَا تَدْفَعُ عَنَّا ضُرًّا، لَكِنِ اقْتَدَيْنَا بِآبَائِنَا، وَاسْتَدَلَّ أَهْلُ الْعِلْمِ بِهَذَا عَلَى أَنَّ التَّقْلِيدَ لَا يَجُوزُ[2].

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٥٩٠).
(٢) تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤/ ٥٢).

وَقَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ: وَتَقْرِيرُ هَذِهِ الْحُجَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام أَنَّ الْغَالِبَ مِنْ حَالِ مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَهُ أَنْ يَلْتَجِئَ إِلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ؛ لِيَعْرِفَ مُرَادَهُ إِذَا سَمِعَ دُعَاءَهُ، ثُمَّ يَسْتَجِيبَ لَهُ فِي بَذْلِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فَقَالَ لَهُمْ: فَإِذَا كَانَ مَنْ تَعْبُدُونَهُ لَا يَسْمَعُ دُعَاءَكُمْ حَتَّى يَعْرِفَ مَقْصُودَكُمْ، وَلَوْ عَرَفَ ذَلِكَ لَمَا صَحَّ أَنْ يَبْذُلَ النَّفْعَ أَوْ يَدْفَعَ الضَّرَرَ، فَكَيْفَ تَسْتَجِيزُونَ أَنْ تَعْبُدُوا مَا هَذَا وَصْفُهُ؟ فَعِنْدَ هَذِهِ الْحُجَّةِ الْقَاهِرَةِ لَمْ يَجِدْ أَبُوهُ وَقَوْمُهُ مَا يَدْفَعُونَ بِهِ هَذِهِ الْحُجَّةَ فَعَدَلُوا إِلَى أَنْ قَالُوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وَهَذَا مِنْ أَقْوَى الدَّلَائِلِ عَلَى فَسَادِ التَّقْلِيدِ وَوُجُوبِ التَّمَسُّكِ بِالِاسْتِدْلَالِ(١).

وَفِي تَوْجِيهٍ آخَرَ لِلْآيَةِ قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ مَكِّيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الْقَيْسِيُّ: فَجَاوَبُوا بِمَا لَمْ يُسْأَلُوا عَنْهُ وَقَالُوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، وَلَمْ يُسْأَلُوا عَنْ ذَلِكَ، وَهَذَا مِنْ عَلَامَاتِ انْقِطَاعِ حُجَّةِ الْمَسْئُولِ، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُمْ حَادُوا عَنِ الْجَوَابِ إِدْخَالُ (بَلْ) مَعَ الْجَوَابِ، وَ(بَلْ) لِلْإِضْرَابِ عَنِ الْأَوَّلِ، وَالْإِيجَابِ لِلثَّانِي؛ فَهُمْ أَضْرَبُوا عَنْ سُؤَالِهِ، وَأَخَذُوا فِي شَيْءٍ آخَرَ لَمْ يَسْأَلْهُمْ عَنْهُ انْقِطَاعًا مِنْهُمْ عَنْ جَوَابِهِ، وَإِقْرَارًا بِالْعَجْزِ(٢).

وَعَلَى هَذَا عَامَّةُ الْمُفَسِّرِينَ؛ فَإِنَّهُمُ اتَّفَقُوا عَلَى إِقْرَارِ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بِعَجْزِ آلِهَتِهِمْ عَنْ سَمَاعِ دَاعِيهَا، فَضْلًا عَنْ إِيصَالِ النَّفْعِ إِلَيْهِ وَدَفْعِ الضُّرِّ

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٢٤/ ١٤٢).
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (٨/ ٥٣١٦).

عَنْهُ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جِدًّا فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ؛ فَإِنَّهُمْ لَوِ اعْتَقَدُوا فِيهَا أَنَّهَا تَسْمَعُ دَاعِيَهَا وَتُجِيبُ سُؤْلَهُ لَمَا امْتَنَعُوا مِنْ جَوَابِ سُؤَالِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لَهُمْ بِذَلِكَ.

كَمَا أَنَّ سُؤَالَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لَهُمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ مُقِرُّونَ بِكَوْنِهَا لَا تَسْمَعُ وَلَا تُجِيبُ، وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، فَأَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ يَعْتَرِفُوا بِذَلِكَ صَرَاحَةً؛ لِيُبْطِلَ عِبَادَتَهُمْ لِتِلْكَ الْآلِهَةِ، وَيُؤَكِّدُهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لِأَبِيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـًٔا﴾ [مَرْيَم: ٤٢]؛ فَظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَبَاهُ كَانَ مُقِرًّا بِأَنَّهَا لَا تَسْمَعُ، وَلَا تُبْصِرُ، وَلَا تُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا.

وَمِنَ الْآيَاتِ الْمُؤَكِّدَةِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مَا اعْتَقَدُوا فِيمَا عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا:

قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ [يُوسُف: ١٠٦].

قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ قَالَ: تَسْأَلُهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ؟ وَمَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ فَيَقُولُونَ: اللَّهُ. فَذَلِكَ إِيمَانُهُمْ بِاللَّهِ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ[١].

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣٧٣).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ إِيمَانُهُمْ قَوْلُهُمْ: اللَّهُ خَالِقُنَا، وَيَرْزُقُنَا، وَيُمِيتُنَا، فَهَذَا إِيمَانٌ مَعَ شِرْكِ عِبَادَتِهِمْ غَيْرَهُ[(١)].

وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ؛ حَيْثُ يَسْتَدْرِجُ اللَّهُ - تَعَالَى - فِيهَا الْمُشْرِكِينَ لِلِاعْتِرَافِ صَرَاحَةً بِمَا هُمْ مُقِرُّونَ بِهِ فِي صُدُورِهِمْ؛ وَهُوَ عَجْزُ آلِهَتِهِمْ، وَأَنَّهَا لَا تَمْلِكُ نَفْعًا لِعَابِدِهَا، وَلَا ضَرًّا لِتَارِكِهَا. وَمِنْهَا:

قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝٨٨ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩﴾ [طه: ٨٨-٨٩].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦﴾ [الْمَائِدَة: ٧٦].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٧٣﴾ [النَّحل: ٧٣].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ﴾ [الرَّعْد: ١٦].

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣٧٤).

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفُرْقَان: ٣].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الْفُرْقَان: ٥٥].

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ ﷻ هَذَا الْإِقْرَارَ مِنْهُمْ دَلِيلًا عَلَى بُطْلَانِ أُلُوهِيَّةِ مَا سِوَاهُ؛ فَمِنْ ذَلِكَ:

قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يُونُس: ٣٤-٣٥].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾؛ يَعْنِي مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَوْثَانِ ﴿مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ يَقُولُ: مَنْ يُنْشِئُ خَلْقَ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ، فَيُحْدِثَ خَلْقَهُ ابْتِدَاءً، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يَقُولُ: ثُمَّ يُفْنِيهِ بَعْدَ إِنْشَائِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهُ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُفْنِيَهُ؟ فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دَعْوَى ذَلِكَ لَهَا[1].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ١٧٧-١٧٨).

وَقَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ: يُبَيِّنُ عَزَّوَجَلَّ سَفَهَهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَامَ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا[١].

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ مَكِّيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الْقَيْسِيُّ: وَالْمَعْنَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾؛ أَيْ آلِهَتِكُمْ ﴿مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾؛ أَيْ يُنْشِئُهُ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ وَلَا مِثَالٍ، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ أَيْ: ثُمَّ يُفْنِيهِ، إِذَا شَاءَ، ثُمَّ يُعِيدُهُ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُفْنِيَهُ؟ فَإِنَّهُمْ لَا يَدَّعُونَ ذَلِكَ لِآلِهَتِهِمْ[٢].

وَقَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ: إِذَا عَرَفْتُمْ وَأَقْرَرْتُمْ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مَا ذَكَرَ سِوَاهُ، وَعَرَفْتُمْ أَنَّ لَهُ السُّلْطَانَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى ذَلِكَ أَفَلَا تَتَّقُونَ بَوَائِقَهُ وَنِقْمَتَهُ؟ أَوْ يَقُولُ: أَفَلَا تَتَّقُونَ عِبَادَةَ غَيْرِهِ دُونَهُ وَإِشْرَاكَ غَيْرِهِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ؟ أَوْ يَقُولُ: أَفَلَا تَتَّقُونَ صَرْفَ شُكْرِهِ إِلَى غَيْرِهِ وَقَدْ أَقْرَرْتُمْ أَنَّهُ هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعَمِ لَا مَنْ تَعْبُدُونَ دُونَهُ؟![٣].

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الثَّعْلَبِيُّ: أَيْ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ذَلِكَ عَلَى وِجْهَةِ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيرِ[٤].

---

(١) تأويلات أهل السنة (٦/ ٤٠).
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/ ٣٢٦٤).
(٣) تأويلات أهل السنة (٦/ ٣٨-٣٩).
(٤) الكشف والبيان، لأبي إسحاق الثعلبي (٥/ ١٣١).

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الْفُرْقَان: ٥٥].

قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ: أَيْ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِنْ عَبَدُوهُ، وَلَا يَضُرُّهُمْ فِي الدُّنْيَا إِنْ تَرَكُوا عِبَادَتَهُ؛ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ مَنْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَتَرْكِهِمُ الْعِبَادَةَ لِمَنْ يَنْفَعُهُمْ إِنْ عَبَدُوهُ، وَيَضُرُّهُمْ إِنْ تَرَكُوا عِبَادَتَهُ؛ وَهُوَ كَمَا ذَكَرَ: ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الْآيَةَ[(١)]، وَأَمْثَالِ مَا ذَكَرَ فِي غَيْرِ آيٍ مِنَ الْقُرْآنِ سَفَهَ أُولَئِكَ بِعِبَادَتِهِمْ لِلْأَصْنَامِ، وَتَرْكِهِمْ عِبَادَةَ اللَّهِ - تَعَالَى[(٢)].

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٨].

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: هَذَا ابْتِدَاءُ احْتِجَاجٍ عَلَيْهِمْ بِحُجَّةٍ أُخْرَى؛ وَجُمْلَتُهَا أَنْ وَقَفُوا عَلَى الْخَالِقِ الْمُخْتَرِعِ، فَإِذَا قَالُوا: إِنَّهُ اللَّهُ، لَمْ يَبْقَ لَهُمْ فِي الْأَصْنَامِ غَرَضٌ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: إِنَّهَا تَنْفَعُ وَتَضُرُّ، فَلَمَّا تَقَعَّدَ مِنْ قَوْلِهِمْ: إِنَّ

---

(١) الزُّمَر: ٣٨.
(٢) تأويلات أهل السنة (٨/ ٣٥).

اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ، قِيلَ لَهُمْ: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ هَؤُلَاءِ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا بِهِمْ قَدَرْتُمْ عَلَى نَقْضِهِ؟ وَحُذِفَ الْجَوَابُ عَنْ هَذَا؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ أَحَدٌ إِلَّا بِأَنَّهُ لَا قُدْرَةَ بِالْأَصْنَامِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ(١).

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرَّعْد: ١٦].

قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ: قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾؛ أَيْ: بَلْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ فِي الْعِبَادَةِ بَعْدَ مَا عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لَهُمْ نَفْعًا إِنْ عَبَدُوهَا وَلَا ضَرًّا إِنْ تَرَكُوا الْعِبَادَةَ لَهَا(٢).

وَقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورٍ: فَالِاسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٌ وَتَوْبِيخٌ وَتَسْفِيهٌ لِرَأْيِهِمْ بِنَاءً عَلَى الْإِقْرَارِ الْمُسَلَّمِ. وَفِيهِ اسْتِدْلَالٌ آخَرُ عَلَى عَدَمِ أَهْلِيَّةِ أَصْنَامِهِمْ لِلْإِلَهِيَّةِ؛ فَإِنَّ اتِّخَاذَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ مَعْلُومٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الِاسْتِفْهَامِ عَنْهُ(٣).

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي (٤/ ٥٣٢).
(٢) تأويلات أهل السنة (٦/ ٣٢٥).
(٣) تفسير التحرير والتنوير (١٣/ ١١٣).

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ [الرَّعْد: ٣٣].

قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾؛ أَيْ: فِي الْعِبَادَةِ.

قَالَ إِسْمَاعِيلُ حَقِّيٍّ الْخَلْوَتِيُّ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾؛ أَيِ: الْأَصْنَامَ، وَهُوَ اسْتِئْنَافٌ؛ يَعْنِي: أَنَّ الْكُفَّارَ سَوَّوْا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْأَصْنَامِ، وَاتَّخَذُوهَا شُرَكَاءَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ[1].

وَقَالَ الْمَرَاغِيُّ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ عَبَدُوهَا مَعَهُ؛ مِنْ أَصْنَامٍ، وَأَوْثَانٍ، وَأَنْدَادٍ[2].

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ

---

(١) روح البيان في تفسير القرآن، لإسماعيل حقي الخلوتي (٤/ ٣٧٨).
(٢) تفسير المراغي (١٣/ ١٠٧).

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النَّمْل: ٥٩-٦٤].

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بَيَانُ عَجْزِ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْقَوْلِ بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ تَفْعَلُ ذَلِكَ مَعَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَفِيهَا أَيْضًا تَوْبِيخٌ لَهُمْ وَتَهَكُّمٌ بِهِمْ لِإِيثَارِهِمُ الشِّرْكَ بِاللَّهِ - تَعَالَى - عَلَى تَوْحِيدِهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: مَعْلُومٌ أَلَّا خَيْرَ فِيمَا أَشْرَكُوهُ أَصْلًا حَتَّى يُوَازَنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ هُوَ خَالِقُ كُلِّ خَيْرٍ وَمَالِكُهُ، وَإِنَّمَا هُوَ إِلْزَامٌ لَهُمْ، وَتَبْكِيتٌ وَتَهَكُّمٌ بِحَالِهِمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ آثَرُوا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَلَا يُؤْثِرُ عَاقِلٌ شَيْئًا عَلَى شَيْءٍ إِلَّا لِدَاعٍ يَدْعُوهُ إِلَى إِيثَارِهِ مِنْ زِيَادَةِ خَيْرٍ وَمَنْفَعَةٍ، فَقِيلَ لَهُمْ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيمَا آثَرُوهُ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْثِرُوهُ لِزِيَادَةِ الْخَيْرِ وَلَكِنْ هَوًى وَعَبَثًا؛ لِيُنَبَّهُوا عَلَى الْخَطَإِ الْمُفْرِطِ، وَالْجَهْلِ الْمُورِطِ، وَإِضْلَالِهِمُ التَّمْيِيزَ، وَنَبْذِهِمُ الْمَعْقُولَ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ الْإِيثَارَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْخَيْرِ الزَّائِدِ(١).

---

(١) الكَشَّاف، لأبي القاسم الزمخشري (٤/ ٤٦٣-٤٦٤).

فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ بِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يُؤْثِرُوا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ لِكَوْنِهَا تَجْلِبُ لَهُمْ خَيْرًا، بَلْ هَوًى وَعَبَثًا، وَتَعْظِيمًا لِلْأَسْلَافِ.

وَقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورٍ: انْتَقَلَ بِهَذَا الْإِضْرَابِ مِنَ الِاسْتِفْهَامِ الْحَقِيقِيِّ التَّهَكُّمِيِّ إِلَى الِاسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِيِّ، وَمِنَ الْمُقَدِّمَةِ الْإِجْمَالِيَّةِ - وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ - إِلَى الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ؛ وَهُوَ الِاسْتِدْلَالُ... فَالِاسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٌ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي نِهَايَتِهِ فِي: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؛ فَهُوَ تَقْرِيرٌ لِإِثْبَاتِ أَنَّ الْخَالِقَ وَالْمُنْبِتَ وَالرَّازِقَ هُوَ اللَّهُ، وَهُوَ مَشُوبٌ بِتَوْبِيخٍ؛ فَلِذَلِكَ ذُيِّلَ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [1].

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠﴾ [الرُّوم: ٤٠].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ مُعَرِّفَهُمْ قُبْحَ فِعْلِهِمْ وَخُبْثَ صَنِيعِهِمْ: ﴿ٱللَّهُ﴾ أَيُّهَا الْقَوْمُ الَّذِي لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ، هُوَ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا، ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ وَخَوَّلَكُمْ، وَلَمْ تَكُونُوا تَمْلِكُونَ قَبْلَ ذَلِكَ، ﴿ثُمَّ﴾ هُوَ

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٠/ ١٠-١١).

﴿يُمِيتُكُمْ﴾ مِنْ بَعْدِ أَنْ خَلَقَكُمْ أَحْيَاءً، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ مِنْ بَعْدِ مَمَاتِكُمْ لِبَعْثِ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ يَقُولُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ -: هَلْ مِنْ آلِهَتِكُمْ وَأَوْثَانِكُمُ الَّتِي تَجْعَلُونَهُمْ لِلَّهِ فِي عِبَادَتِكُمْ إِيَّاهُ شُرَكَاءَ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَيَخْلُقَ أَوْ يَرْزُقَ، أَوْ يُمِيتَ، أَوْ يَنْشُرَ؟ وَهَذَا مِنَ اللَّهِ تَقْرِيعٌ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ. وَإِنَّمَا مَعْنَى الْكَلَامِ: أَنَّ شُرَكَاءَهُمْ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَكَيْفَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؟! ثُمَّ بَرَّأَ نَفْسَهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - عَنِ الْفِرْيَةِ الَّتِي افْتَرَاهَا هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ آلِهَتَهُمْ لَهُ شُرَكَاءُ؛ فَقَالَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ -: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ؛ أَيْ: تَنْزِيهًا لِلَّهِ وَتَبْرِئَةً ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ يَقُولُ: وَعُلُوًّا لَهُ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يَقُولُ: عَنْ شِرْكِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ[(١)].

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ مَكِّيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الْقَيْسِيُّ: أَيْ هَلْ يَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ خَلْقٍ أَوْ مَوْتٍ أَوْ بَعْثٍ أَوْ رِزْقٍ أَوْ ضُرٍّ أَوْ نَفْعٍ آلِهَتُكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَ؟ فَلَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يُقِرُّوا أَنَّهَا لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؛ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ[(٢)].

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: كَرَّرَ مُخَاطَبَةَ الْكَفَرَةِ فِي أَمْرِ أَوْثَانِهِمْ؛ فَذَكَرَ أَفْعَالَ اللَّهِ - تَعَالَى - الَّتِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا؛ وَهِيَ الْخَلْقُ وَالرِّزْقُ، وَالْإِمَاتَةُ

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٥٠٨-٥٠٩).
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٩/ ٥٦٩٤).

وَالْإِحْيَاءُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْكِرَ ذَلِكَ عَاقِلٌ، وَوَقَّفَ الْكُفَّارَ عَلَى جِهَةِ التَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ: هَلْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ - أَيِ الَّذِينَ جَعَلُوهُمْ شُرَكَاءَ - مَنْ يَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؟(١).

وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ: أَثْبَتَ لَهُ - تَعَالَى - لَوَازِمَ الْأُلُوهِيَّةِ وَخَوَاصَّهَا، وَنَفَاهَا رَأْسًا عَمَّا اتَّخَذُوهُ شُرَكَاءَ لَهُ - تَعَالَى - مِنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا، مُؤَكِّدًا بِالْإِنْكَارِ، عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْبُرْهَانُ وَالْعِيَانُ، وَوَقَعَ عَلَيْهِ الْوِفَاقُ(٢).

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سَبَأ: ٢٢-٢٣].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - أَيْضًا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فَاطِر: ٤٠].

فَلَوْ كَانُوا يَدَّعُونَ شَيْئًا لِآلِهَتِهِمْ، لَقَالُوا: خَلَقُوا كَذَا وَكَذَا.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٣٣٩-٣٤٠).
(٢) تفسير أبي السعود (٧/ ٦٢).

قَالَ الْعَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمُعَلِّمِيُّ الْيَمَانِي: إِنَّ اتِّخَاذَ الشَّيْءِ إِلَهًا لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى اعْتِقَادِ كَوْنِهِ وَاجِبَ الْوُجُودِ، وَلَا اعْتِقَادِ كَوْنِهِ مُسْتَغْنِيًا عَمَّا سِوَاهُ، وَلَا كَوْنِهِ مُدَبِّرًا مُسْتَقِلًّا، بَلْ وَلَا غَيْرَ مُسْتَقِلٍّ؛ فَإِنَّ الَّذِينَ أَلَّهُوا الْأَصْنَامَ لَمْ يَعْتَقِدُوا لَهَا شَيْئًا مِنَ التَّدْبِيرِ(١).



(١) رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله، للعلَّامة عبد الرحمن المعلمي اليماني ص (٣٤٦).

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ:

حَقِيقَةُ الشِّرْكِ تَسْوِيَةُ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ:

إِنَّ حَقِيقَةَ الشِّرْكِ هِيَ تَسْوِيَةُ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ، وَجَعْلُ غَيْرِ اللَّهِ عِدْلًا(١) لِلَّهِ، وَنَظِيرًا لَهُ، وَنِدًّا وَمُكَافِئًا، هَذَا مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى الْعَامِّ، أَمَّا مِنْ جِهَةِ الْوَاقِعِ؛ فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الْمُشْرِكِينَ آلِهَتَهُمْ بِاللَّهِ إِنَّمَا كَانَ فِي الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ خَاصَّةً، دُونَ الرُّبُوبِيَّةِ.

قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧-٩٨].

قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ: وَقَوْلُهُ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُمْ هَذَا لِلْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا، وَذَلِكَ فِي تَسْمِيَتِهِمْ آلِهَةً وَجَعْلِهِمُ الْعِبَادَةَ لَهَا يُسَوُّونَهَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ فِي التَّسْمِيَةِ وَالْعِبَادَةِ. وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُمْ هَذَا لِلشَّيَاطِينِ، فَهُوَ فِي اتِّبَاعِهِمْ أَمْرَهُمْ وَدُعَائِهِمُ الَّذِي دَعَوْهُمْ، وَإِلَّا لَا أَحَدَ مِنَ الْكَفَرَةِ يَقْصِدُ عِبَادَةَ الشَّيْطَانِ أَوْ يُسَمِّيهِ إِلَهًا، وَلَكِنْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ مُتَابَعَتِهِمْ أَمْرَهُمْ. وَفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ إِذْ كُنَّا نُشْرِكُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ). وَقَالَ بَعْضُهُمْ: (إِذْ كُنَّا نُطِيعُكُمْ كَمَا نُطِيعُ رَبَّ الْعَالَمِينَ). وَقَالَ بَعْضُهُمْ: (إِذْ

---

(١) الْعِدْلُ: بالكسر الْمِثْل. مختار الصِّحَاح (عدل).

نَعْدِلُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ). وَبَعْضُهُ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ(١).

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ فُورَكَ: التَّسْوِيَةُ هَا هُنَا شَرِكَةٌ فِي الْعِبَادَةِ؛ وَمَعْنَاهَا: إِعْطَاءُ أَحَدِ الشَّيْئَيْنِ مِثْلَ مَا يُعْطِي الْآخَرَ. وَالتَّسْوِيَةُ، وَالْمُعَادَلَةُ، وَالْمُوَازَنَةُ: نَظَائِرُ فِي اللُّغَةِ(٢).

وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ نَعْدِلُكُمْ ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَنَعْبُدُكُمْ مِنْ دُونِهِ(٣).

وَقَالَ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ: وَمَا سَوَّوْهُمْ بِهِ إِلَّا فِي الْعِبَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ دُونَ أَوْصَافِ الْكَمَالِ وَنُعُوتِ الْجَلَالِ(٤).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾؛ أَيْ: فِي الْعِبَادَةِ(٥).

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأَنْعَام: ١].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يَجْعَلُونَ لَهُ شَرِيكًا فِي عِبَادَتِهِمْ

---

(١) تأويلات أهل السنة، للماتريدي (٨ / ٦٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن فورك (١/ ٢٤٢-٢٤٣).
(٣) الكشف والبيان، للثعلبي (٧ / ١٧١).
(٤) عزاه المعلمي اليماني في كتابه رفع الاشتباه ص (٣٤٦) إلى العز بن عبد السلام في كتابه الإشارة والإيجاز على أنواع المجاز.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦ / ٤٧).

إِيَّاهُ؛ فَيَعْبُدُونَ مَعَهُ الْآلِهَةَ وَالْأَنْدَادَ وَالْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ، وَلَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ شَرِكَهُ فِي خَلْقِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا فِي إِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، بَلْ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَهُمْ يُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ غَيْرَهُ. فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَبْلَغَهَا مِنْ حُجَّةٍ، وَأَوْجَزَهَا مِنْ عِظَةٍ، لِمَنْ فَكَّرَ فِيهَا بِعَقْلٍ، وَتَدَبَّرَهَا بِفَهْمٍ!»[1].

وَقَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ: وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ قِيلَ: يُشْرِكُونَ مَعَ مَا بَيَّنَ لَهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الرَّبِّ وَرُبُوبِيَّتِهِ؛ أَيْ: جَعَلُوا كُلَّ مَا يَعْبُدُونَهُ دُونَ اللَّهِ عَدِيلًا لِلَّهِ، وَأَثْبَتُوا الْمُعَادَلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَلَيْسَ لِلَّهِ - تَعَالَى - عَدِيلٌ، وَلَا نَدِيدٌ، وَلَا شَرِيكٌ، وَلَا وَلَدٌ، وَلَا صَاحِبَةٌ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا[2].

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٥٠]. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ [النَّمْل: ٦٠].

إِنَّ اعْتِقَادَ الشَّفَاعَةِ فِي الْآلِهَةِ هُوَ اعْتِقَادُ نَوْعٍ مِنَ التَّأْثِيرِ وَالنَّفْعِ فِيهَا،

---

(١) تفسير الطبري (٩ / ١٤٦ - ١٤٧).
(٢) تأويلات أهل السنة، للماتريدي (٤ / ٦).

وَكَذَلِكَ هُوَ اعْتِقَادُ اسْتِحْقَاقِهَا لِلْعِبَادَةِ، عَلَى أَنَّنَا لَوْ سَلَّمْنَا بِأَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَا تَكُونُ شِرْكًا إِلَّا مَعَ الِاعْتِقَادِ فِي الْمَعْبُودِ؛ كَاعْتِقَادِ كَوْنِهِ يَمْلِكُ نَفْعًا أَوْ ضَرًّا، أَوْ يَمْلِكُ تَأْثِيرًا يُحَقِّقُ بِهِ مَطْلُوبَ الْعَابِدِ، فَإِنَّ هَذَا الِاعْتِقَادَ مُتَحَقِّقٌ فِي الْمُشْرِكِينَ **مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ**:

مِنْهَا: أَنَّ ذَهَابَهُمْ إِلَى اسْتِحْقَاقِ تِلْكَ الْآلِهَةِ لِلْعِبَادَةِ وَالتَّذَلُّلِ وَالْخُضُوعِ - وَلِأَجْلِ ذَلِكَ عَبَدُوهَا - هُوَ فِي حَدِّ ذَاتِهِ اعْتِقَادٌ؛ إِذْ إِنَّهُ اعْتِقَادُ اسْتِحْقَاقِ غَيْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - لِلتَّأَلُّهِ وَالتَّعَبُّدِ الَّذِي هُوَ خَالِصُ حَقِّهِ - تَعَالَى.

وَمِنْهَا: أَنَّ اتِّخَاذَهُمُ الْمَعْبُودَاتِ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى اعْتِبَارِ كَوْنِهَا شَافِعَةً لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَوْنِهَا تَمْلِكُ مَا يَطْلُبُ مِنْهَا عَابِدُوهَا، وَهُوَ الشَّفَاعَةُ لَهُمْ - وَهُوَ عَيْنُ مَا نَفَاهُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَنْ جَمِيعِ مَعْبُودَاتِهِمْ، وَأَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ خَاصَّةً؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٣-٤٤] - هُوَ أَيْضًا نَوْعٌ مِنِ اعْتِقَادِ التَّأْثِيرِ فِي مَعْبُودَاتِهِمْ؛ وَهُوَ التَّأْثِيرُ بِالشَّفَاعَةِ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ - تَعَالَى -، فَهُوَ نَفْعٌ حَاصِلٌ مِنْهَا لَهُمْ؛ فَهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ مَا عَبَدُوا مَنْ عَبَدُوا مِنَ

الْأَنْبِيَاءِ أَوِ الْأَوْلِيَاءِ أَوِ الْمَلَائِكَةِ أَوِ الْأَصْنَامِ وَالْأَحْجَارِ وَالْقُبُورِ إِلَّا وَقَدِ اعْتَقَدُوا فِيهِمْ نَوْعًا مِنَ التَّأْثِيرِ وَالنَّفْعِ.



الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ:

ذِكْرُ بَعْضِ دَوَافِعِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى عِبَادَةِ الْآلِهَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ:

إِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ اتَّخَذُوا آلِهَةً مَعَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّ مَعْنَى اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً أَنَّهُمْ عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّ حَقِيقَةَ شِرْكِهِمُ الَّذِي جَاءَتِ الْأَنْبِيَاءُ بِإِنْكَارِهِ إِذًا هُوَ: عِبَادَةُ غَيْرِ اللَّهِ وَاتِّخَاذُ آلِهَةٍ مَعَهُ.

فَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَعْتَقِدُوا فِي هَذِهِ الْآلِهَةِ الَّتِي عَبَدُوهَا الرِّزْقَ وَالْإِعْطَاءَ وَالْمَنْعَ، وَالْمُلْكَ وَالتَّدْبِيرَ، وَالنَّفْعَ وَالضُّرَّ وَالتَّأْثِيرَ، بَطَلَ حِينَئِذٍ تَقْيِيدُ شِرْكِهِمْ بِاعْتِقَادِهِمُ التَّأْثِيرَ فِي الْآلِهَةِ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، كَمَا يَزْعُمُهُ الْعَوْنِيُّ وَأَمْثَالُهُ.

لَكِنْ يُقَالُ: فَإِذَا لَمْ يَعْتَقِدُوا فِيهَا التَّأْثِيرَ، فَمَا حَقِيقَةُ شِرْكِهِمْ إِذًا؟.

الْجَوَابُ: حَقِيقَةُ شِرْكِهِمْ: هِيَ عِبَادَةُ تِلْكَ الْآلِهَةِ.

فَيُقَالُ: فَإِذَا كَانَ شِرْكُهُمْ هُوَ عِبَادَةَ تِلْكَ الْمَعْبُودَاتِ وَالْآلِهَةِ، فَمَا تِلْكَ الْعِبَادَةُ؟.

الْجَوَابُ: الْعِبَادَةُ فِعْلُ الْعَبْدِ؛ وَهِيَ الذُّلُّ وَالْخُضُوعُ لَهُ عَلَى وَجْهِ التَّأَلُّهِ وَالتَّعَبُّدِ وَالتَّعْظِيمِ، مِنْ دُونِ أَنْ تُقَيَّدَ الْعِبَادَةُ بِاعْتِقَادٍ مَخْصُوصٍ.

وَلِتَوْضِيحِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ لِنَنْظُرْ إِلَى وَصْفِ اللَّهِ - تَعَالَى - عِبَادَةَ الْمُشْرِكِينَ وَتَأَلُّهَهُمْ لِمَعْبُودَاتِهِمْ، وَإِخْبَارِهِ عَنِ الِاعْتِقَادِ الدَّافِعِ لَهُمْ إِلَى تِلْكَ الْعِبَادَةِ وَذَلِكَ التَّأَلُّهِ.

قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾ [الزُّخْرُف: ٢٣-٢٤].

فَإِنَّ تَقْلِيدَ الْأَسْلَافِ وَتَعْظِيمَ عَادَاتِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ وَالْهَيْبَةَ مِنْ مُخَالَفَةِ طَرِيقَتِهِمْ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الشِّرْكِ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ: وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ يَقُولُ: قَالُوا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مِلَّةٍ وَدِينٍ، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾؛ يَعْنِي: وَإِنَّا عَلَى مِنْهَاجِهِمْ وَطَرِيقَتِهِمْ ﴿مُّقۡتَدُونَ﴾ بِفِعْلِهِمْ؛ نَفْعَلُ كَالَّذِي فَعَلُوا، وَنَعْبُدُ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. يَقُولُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - لِمُحَمَّدٍ ﷺ: فَإِنَّمَا سَلَكَ مُشْرِكُو قَوْمِكَ مِنْهَاجَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ فِي إِجَابَتِهِمْ إِيَّاكَ بِمَا أَجَابُوكَ بِهِ، وَرَدِّهِمْ مَا رَدُّوا عَلَيْكَ مِنَ النَّصِيحَةِ، وَاحْتِجَاجِهِمْ بِمَا احْتَجُّوا بِهِ لِمُقَامِهِمْ عَلَى دِينِهِمُ الْبَاطِلِ[١].

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ٥٧٣).

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: يَعْنِي أَتَتَّبِعُونَ آبَاءَكُمْ، وَلَوْ جِئْتُكُمْ بِدِينٍ أَهْدَى مِنْ دِينِ آبَائِكُمْ؟! قَالُوا: إِنَّا ثَابِتُونَ عَلَى دِينِ آبَائِنَا لَا نَنْفَكُّ عَنْهُ، وَإِنْ جِئْتَنَا بِمَا هُوَ أَهْدَى وَأَهْدَى(١).

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٢٥].

فَمِنْ دَوَافِعِ الشِّرْكِ أَيْضًا الْمَوَدَّةُ وَمُوَافَقَةُ الْأَصْحَابِ وَالْأَحْبَابِ.

قَالَ الْأَلُوسِيُّ: أَيْ لِتَتَوَادُّوا بَيْنَكُمْ وَتَتَوَاصَلُوا؛ لِاجْتِمَاعِكُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا، وَاتِّفَاقِكُمْ عَلَيْهَا، وَائْتِلَافِكُمْ؛ كَمَا يَتَّفِقُ النَّاسُ عَلَى مَذْهَبٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ تَحَابِّهِمْ وَتَصَادُقِهِمْ، فَالْمَفْعُولُ لَهُ غَايَةٌ مُتَرَتِّبَةٌ عَلَى الْفِعْلِ، وَمَعْلُولٌ لَهُ فِي الْخَارِجِ، أَوِ الْمَعْنَى: إِنَّ مَوَدَّةَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا هِيَ الَّتِي دَعَتْكُمْ إِلَى اتِّخَاذِهَا؛ بِأَنْ رَأَيْتُمْ بَعْضَ مَنْ تَوَدُّونَهُ اتَّخَذَهَا؛ فَاتَّخَذْتُمُوهَا مُوَافَقَةً لَهُ لِمَوَدَّتِكُمْ إِيَّاهُ، وَهَذَا كَمَا يَرَى الْإِنْسَانُ مَنْ يَوَدُّهُ يَفْعَلُ شَيْئًا؛ فَيَفْعَلُهُ مَوَدَّةً لَهُ، فَالْمَفْعُولُ لَهُ عَلَى هَذَا عِلَّةٌ بَاعِثَةٌ عَلَى الْفِعْلِ، وَلَيْسَ مَعْلُولًا لَهُ فِي الْخَارِجِ، وَالْمُرَادُ:

---

(١) الكَشَّاف، لأبي القاسم الزمخشري (٥/ ٤٣٥-٤٣٦).

نَفْيُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا نَفْعٌ أَوْ ضُرٌّ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ لِاتِّخَاذِهَا رَجَاءُ النَّفْعِ أَوْ خَوْفُ الضُّرِّ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْتَبِرْ مَا جَعَلُوهُ عِلَّةً لِاتِّخَاذِهَا عِلَّةً، وَهُوَ مَا أَشَارُوا إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣] لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ لِكَوْنِهِ أَمْرًا مَوْهُومًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ مِمَّا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عِلَّةً بَاعِثَةً وَسَبَبًا حَامِلًا لِمَنْ لَهُ أَدْنَى عَقْلٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أُنَاسًا مَخْصُوصِينَ، وَالْقَائِلُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أُنَاسًا غَيْرَهُمْ. وَقِيلَ: إِنَّ الْأَوْثَانَ أَوَّلَ مَا اتُّخِذَتْ بِسَبَبِ الْمَوَدَّةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ أُنَاسٌ صَالِحُونَ، فَمَاتُوا، وَأَسِفَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ زَمَانِهِمْ؛ فَصَوَّرُوا أَحْجَارًا بِصُوَرِهِمْ حُبًّا لَهُمْ، فَكَانُوا يُعَظِّمُونَهَا فِي الْجُمْلَةِ، وَلَمْ يَزَلْ تَعْظِيمُهَا يَزْدَادُ جِيلًا فَجِيلًا حَتَّى عُبِدَتْ، فَالْآيَةُ إِشَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ، وَالْمَعْنَى: إِنَّمَا اتَّخَذَ أَسْلَافُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا إِلَخْ. وَمِثْلُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَثِيرٌ»[1].

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ أَبِي طَالِبٍ فِي أَشْعَارِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارِيَ سُبَّةً ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا[2]

---

(١) روح المعاني، للألوسي (٢٠ / ١٥٠).
(٢) السير والمغازي، لابن إسحاق (ص: ١٥٥).

فَإِنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُسَبَّ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ وَيُحْكَمَ عَلَيْهِمْ بِالشِّرْكِ وَالضَّلَالِ، أَوْ يُعَابَ هُوَ عَلَى تَرْكِ دِينِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ، مَعَ أَنَّهُ يَعْتَرِفُ صَرَاحَةً بِصِحَّةِ دِينِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ صَادِقٌ فِي دَعْوَتِهِ.

قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ: إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكُفَّارِ كَانُوا يَتَمَسَّكُونَ بِالتَّقْلِيدِ، وَيُنْكِرُونَ الِاسْتِدْلَالَ؛ عَلَى مَا قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخْرُف: ٢٣] وَ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٥٣][1].

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يُونُس: ١٨].

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِخْبَارُ اللَّهِ - تَعَالَى - أَنَّ شِرْكَهُمْ كَانَ بِعِبَادَةِ مَنْ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ شُفَعَاءُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أَيْ: أَنَّهُمْ عَبَدُوهُمْ لَا لِأَجْلِ اعْتِقَادِ كَوْنِهِمْ يَنْفَعُونَ أَوْ يَضُرُّونَ، بَلْ لِأَجْلِ اعْتِقَادِ كَوْنِهِمْ شُفَعَاءَ وَوَسَائِطَ عَنْدَ مَنْ بِيَدِهِ النَّفْعُ وَالضُّرُّ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ: يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا رَجَاءَ شَفَاعَتِهَا عِنْدَ اللَّهِ... وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ[2].

---

(١) تفسير الفخر الرازي (٢١ / ٢٢٤).
(٢) تفسير الطبري (١٢/ ١٤٢).

وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ فُورَكَ: وَجْهُ الشُّبْهَةِ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ مِنْ وُجُوهٍ؛ مِنْهَا: تَوَهُّمُهُمْ أَنَّهَا تُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى؛ كَتَقْبِيلِ بِسَاطِ الْمَلِكِ لِلتَّقَرُّبِ مِنْهُ. وَمِنْهَا: اتِّخَاذُ هَيَاكِلِ النُّجُومِ لِتَحْظَى بِتَوْجِيهِ الْعِبَادَةِ إِلَى هَيَاكِلِهَا؛ كَفِعْلِ الْهِنْدِ فِي هَذَا الْوَقْتِ. وَمِنْهَا: ارْتِبَاطُ عِبَادَةِ اللَّهِ بِصُورَةٍ يُرَى مِنْهَا. وَمِنْهَا: تَوَهُّمُ خَاصِيَّةٍ فِي عِبَادَةِ الصَّنَمِ؛ كَالْخَاصِيَّةِ فِي حَجَرِ الْمِغْنَاطِيسِ. وَأَكْثَرُ الْعَامَّةِ عَلَى تَقْلِيدِ الَّذِينَ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّبْهَةُ[١].

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْكَيْسَانِيُّ: كَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ؛ رَجَاءَ أَنْ تُقَرِّبَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهَا إِلَى اللَّهِ، لَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا وَيَتَّخِذُونَهَا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ[٢].

وَقَالَ الرَّازِيُّ: وَاعْلَمْ أَنَّهُ - تَعَالَى - حَكَى عَنْهُمْ أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾. أَمَّا الْأَوَّلُ فَقَدْ نَبَّهَ اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَى فَسَادِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ ... وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: مَا حَكَاهُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَنْهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ فَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: إِنَّ أُولَئِكَ الْكُفَّارَ تَوَهَّمُوا أَنَّ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ أَشَدُّ فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ ﷻ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن فورك (١/ ٢٣٧).
(٢) تأويلات أهل السنة (٤/ ٢١١).

فَقَالُوا: لَيْسَتْ لَنَا أَهْلِيَّةٌ أَنْ نَشْتَغِلَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ - تَعَالَى -، بَلْ نَحْنُ نَشْتَغِلُ بِعِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ، وَأَنَّهَا تَكُونُ شُفَعَاءَ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ - تَعَالَى -، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي أَنَّهُمْ كَيْفَ قَالُوا فِي الْأَصْنَامِ: إِنَّهَا شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ؟ وَذَكَرُوا فِيهِ أَقْوَالًا كَثِيرَةً... ثُمَّ قَالَ: وَرَابِعُهَا: أَنَّهُمْ وَضَعُوا هَذِهِ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ عَلَى صُوَرِ أَنْبِيَائِهِمْ وَأَكَابِرِهِمْ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ مَتَى اشْتَغَلُوا بِعِبَادَةِ هَذِهِ التَّمَاثِيلِ، فَإِنَّ أُولَئِكَ الْأَكَابِرَ يَكُونُونَ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَنَظِيرُهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ اشْتِغَالُ كَثِيرٍ مِنَ الْخَلْقِ بِتَعْظِيمِ قُبُورِ الْأَكَابِرِ؛ عَلَى اعْتِقَادِ أَنَّهُمْ إِذَا عَظَّمُوا قُبُورَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ. اهـ[1].

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣].

عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ قَالَ: قُرَيْشٌ تَقُولُهُ لِلْأَوْثَانِ، وَمَنْ قَبْلَهُمْ يَقُولُهُ لِلْمَلَائِكَةِ، وَلِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَلِعُزَيْرٍ[2].

وَقَالَ ابْنُ جُزَيٍّ: وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (قَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ) بِإِظْهَارِ الْقَوْلِ؛ أَيْ يَقُولُ الْكُفَّارُ: مَا نَعْبُدُ هَؤُلَاءِ الْآلِهَةَ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

(١) تفسير الفخر الرازي (١٧/ ٦٢-٦٣).
(٢) تفسير الطبري (٢٠/ ١٥٧).

وَيَشْفَعُوا لَنَا عِنْدَهُ، وَيَعْنِي بِذَلِكَ الْكُفَّارَ الَّذِينَ عَبَدُوا الْمَلَائِكَةَ، أَوِ الَّذِينَ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ، أَوِ الَّذِينَ عَبَدُوا عِيسَى أَوْ عُزَيْرًا؛ فَإِنَّ جَمِيعَهُمْ قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ. وَمَعْنَى ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ : قُرْبَى؛ فَهُوَ مَصْدَرٌ مِنْ (يُقَرِّبُونَا)(١).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَنْ رَبُّكُمْ وَخَالِقُكُمْ؟ وَمَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً؟ قَالُوا: اللَّهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا مَعْنَى عِبَادَتِكُمُ الْأَصْنَامَ؟ قَالُوا: لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَيَشْفَعُوا لَنَا عِنْدَهُ(٢).

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الْأَحْقَاف: ٢٨].

قَالَ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: وَقَوْلُهُ: ﴿قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ﴾ فَمِنْ قَوْلِهِمْ: (قُرْبَانُ الْمَلِكِ) لِمَنْ يَتَقَرَّبُ بِخِدْمَتِهِ إِلَى الْمَلِكِ، وَيُسْتَعْمَلُ ذَلِكَ لِلْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ(٣).

وَقَالَ ابْنُ أَبِي زَمَنِينَ: الْمَعْنَى: اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً يَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ(٤).

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي (٢/ ٢٦٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٨/ ٢٤٧).
(٣) المفردات في غريب القرآن ص (٣٩٩).
(٤) تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زَمَنِينَ (٤/ ٢٣٠).

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: أَيِ اتَّخَذُوهُمْ شُفَعَاءَ مُتَقَرَّبًا بِهِمْ إِلَى اللَّهِ؛ حَيْثُ قَالُوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[1].

وَقَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ: أَيِ اتَّخَذُوهُمْ شُفَعَاءَ مُتَقَرَّبًا بِهِمْ إِلَى اللَّهِ؛ حَيْثُ قَالُوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ وَقَالُوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[2].

وَقَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٣-٤٤].

قَالَ قَتَادَةُ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾: الْآلِهَةَ، ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾: الشَّفَاعَةَ[3].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ: أَتَتَّخِذُونَ هَذِهِ الْآلِهَةَ شُفَعَاءَ كَمَا تَزْعُمُونَ، وَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا؟! قُلْ لَهُمْ: إِنْ تَكُونُوا تَعْبُدُونَهَا لِذَلِكَ، وَتَشْفَعُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ، فَأَخْلِصُوا عِبَادَتَكُمْ لِلَّهِ، وَأَفْرِدُوهُ

---

(١) الكَشَّاف، لأبي القاسم الزمخشري (٥/ ٥٠٩).
(٢) تفسير الفخر الرازي (٢٨/ ٣٠).
(٣) تفسير الطبري (٢٠/ ٢١٧).

بِالْأُلُوهَةِ؛ فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ جَمِيعًا لَهُ، لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ، وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا[١].

وَقَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ يُخَرَّجُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: بَلِ اتَّخَذُوا بِعِبَادَةِ مَنْ عَبَدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ لِأَنْفُسِهِمْ، وَلَا يَكُونُونَ شُفَعَاءَ لَهُمْ، وَلَا يَمْلِكُونَ ذَلِكَ، وَلَا يَفْعَلُونَ.

وَالثَّانِي: بَلِ اتَّخَذُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ جَعْلَ الشَّفَاعَةِ لِأَحَدٍ دُونَ اللَّهِ، إِلَّا مَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ الشَّفَاعَةَ، وَلَا يَجْعَلُ اللَّهُ لِأَحَدٍ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ، أَوْ مَنِ ارْتَضَى لَهُ الشَّفَاعَةَ[٢].

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ مَكِّيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الْقَيْسِيُّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾؛ أَيِ: اتَّخَذَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَتَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَ شُفَعَاءَ تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ[٣].

وَقَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي كَلَامٍ نَفِيسٍ: وَاعْلَمْ أَنَّ الْكُفَّارَ أَوْرَدُوا عَلَى

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ٢١٧).
(٢) تأويلات أهل السنة (٨/ ٦٨٨-٦٨٩).
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٣٤٨).

هَذَا الْكَلَامِ سُؤَالًا ؛ فَقَالُوا : نَحْنُ لَا نَعْبُدُ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لِاعْتِقَادِ أَنَّهَا آلِهَةٌ تَضُرُّ وَتَنْفَعُ، وَإِنَّمَا نَعْبُدُهَا لِأَجْلِ أَنَّهَا تَمَاثِيلُ لِأَشْخَاصٍ كَانُوا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، فَنَحْنُ نَعْبُدُهَا لِأَجْلِ أَنْ يَصِيرَ أُولَئِكَ الْأَكَابِرُ شُفَعَاءَ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ، فَأَجَابَ اللَّهُ - تَعَالَى - بِأَنْ قَالَ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣﴾ ، وَتَقْرِيرُ الْجَوَابِ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ إِمَّا أَنْ يَطْمَعُوا بِتِلْكَ الشَّفَاعَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ، أَوْ مِنْ أُولَئِكَ الْعُلَمَاءِ وَالزُّهَّادِ الَّذِينَ جُعِلَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ تَمَاثِيلَ لَهُمْ، وَالْأَوَّلُ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْجَمَادَاتِ - وَهِيَ الْأَصْنَامُ - لَا تَمْلِكُ شَيْئًا، وَلَا تَعْقِلُ شَيْئًا، فَكَيْفَ يُعْقَلُ صُدُورُ الشَّفَاعَةِ عَنْهَا، وَالثَّانِي بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ شَيْئًا، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الشَّفَاعَةِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ؛ فَيَكُونُ الشَّفِيعُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ الَّذِي يَأْذَنُ فِي تِلْكَ الشَّفَاعَةِ، فَكَانَ الِاشْتِغَالُ بِعِبَادَتِهِ أَوْلَى مِنَ الِاشْتِغَالِ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ لَا مُلْكَ لِأَحَدٍ غَيْرَ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [١].

وَلِأَجْلِ هَذَا الِاعْتِقَادِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ ﷻ عَنْ عَامَّةِ الْمُشْرِكِينَ فِي آلِهَتِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِهَا؛ وَهُوَ قَصْدُهُمْ بِعِبَادَتِهَا طَلَبَ الشَّفَاعَةِ وَالتَّقَرُّبَ

(١) تفسير الفخر الرازي (٢٦/ ٢٨٥).

إِلَى اللَّهِ؛ فَقَدْ كَرَّرَ اللَّهُ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ التَّأْكِيدَ عَلَى مِلْكِهِ لِلشَّفَاعَةِ وَحْدَهُ، وَنَفْيِهِ إِيَّاهَا عَنْ جَمِيعِ مَعْبُودَاتِهِمْ؛ لِيُبْطِلَ ذَلِكَ التَّعَلُّقَ الشِّرْكِيَّ بِتِلْكَ الْمَعْبُودَاتِ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٥].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢٦-٢٨].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٨٦].

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ الدَّوَافِعَ الَّتِي دَفَعَتِ الْمُشْرِكِينَ لِعِبَادَةِ الْأَنْدَادِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَالَ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا طَلَبًا لِلرِّيَاسَةِ وَالْعِزِّ وَالشَّرَفِ؛ كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مَرْيَم: ٨١]؛ فَأَخْبَرَ أَنَّ الْعِزَّ وَالشَّرَفَ لَيْسَ فِي ذَلِكَ؛ وَلَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ عِزُّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ

الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ، وَيَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، وَيَقُولُونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يُونُس: ١٨]؛ فَأَخْبَرَ أَنْ لَيْسَ فِي عِبَادَتِكُمْ هَذِهِ الْأَوْثَانَ دُونَ اللَّهِ لَكُمْ زُلْفى، وَلَا ثَوَابٌ، وَلَكِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ؛ فَعِنْدَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ. وَالثَّالِثُ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا عَبَدُوا هَذِهِ الْأَصْنَامَ لِمَنَافِعَ يَتَأَمَّلُونَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالسَّعَةَ فِي الدُّنْيَا؛ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ الْآيَةَ [الْعَنْكَبُوت: ١٧]؛ فَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ﴾ [النِّسَاء: ١٣٤] لَا عِنْدَ مَنْ تَطْلُبُونَ[1].

وَقَالَ الشَّهْرَسْتَانِيُّ: وَبِالْجُمْلَةِ وَضْعُ الْأَصْنَامِ حَيْثُمَا قَدَّرُوهُ إِنَّمَا هُوَ عَلَى مَعْبُودٍ غَائِبٍ حَتَّى يَكُونَ الصَّنَمُ الْمَعْمُولُ عَلَى صُورَتِهِ وَشَكْلِهِ وَهَيْئَتِهِ نَائِبًا مَنَابَهُ، وَقَائِمًا مَقَامَهُ، وَإِلَّا فَنَعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ عَاقِلًا مَا لَا يَنْحِتُ جِسْمًا بِيَدِهِ وَيُصَوِّرُ صُورَةً، ثُمَّ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ إِلَهُهُ وَخَالِقُهُ، وَإِلَهُ الْكُلِّ وَخَالِقُ الْكُلِّ؛ إِذْ كَانَ وُجُودُهُ مَسْبُوقًا بِوُجُودِ صَانِعِهِ، وَشَكْلُهُ يَحْدُثُ بِصَنْعَةِ نَاحِتِهِ، لَكِنَّ الْقَوْمَ لَمَّا عَكَفُوا عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا، كَانَ عُكُوفُهُمْ ذَلِكَ عِبَادَةً، وَطَلَبُهُمُ الْحَوَائِجَ مِنْهَا إِثْبَاتَ إِلَهِيَّةٍ لَهَا، وَعَنْ هَذَا كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

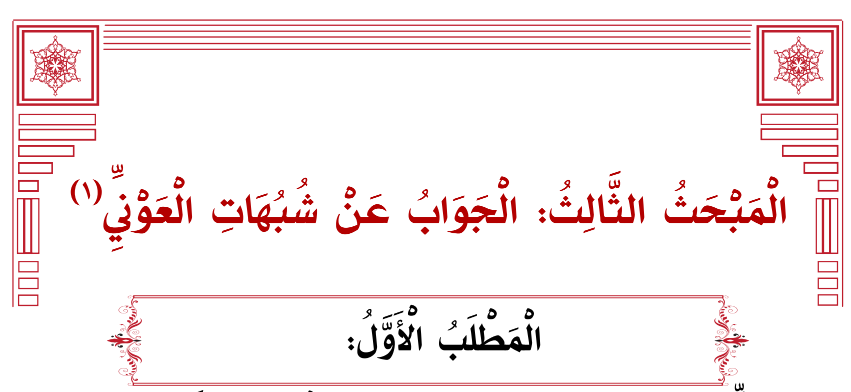
---

(١) تأويلات أهل السنة (٣/ ٣٨٣-٣٨٤).

لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٓ﴾ ، فَلَوْ كَانُوا مُقْتَصِرِينَ عَلَى صُوَرِهَا فِي اعْتِقَادِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ لَمَا تَعَدَّوْا عَنْهَا إِلَى رَبِّ الْأَرْبَابِ[1].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) الْمِلَل والنِّحل، للشهرستاني (٢/ ٦١١).



الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: الْجَوَابُ عَنْ شُبُهَاتِ الْعَوْنِيِّ(١)

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ:

دَعْوَى الْعَوْنِيِّ امْتِنَاعَ اعْتِقَادِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَصْنَامِ أَنَّهَا مُجَرَّدُ جَمَادَاتٍ لَا تَعْقِلُ، وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تَضُرُّ، وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا:

مِنْ غَيْرِ الْمُمْتَنِعِ وُجُودُ مَنْ يَعْتَقِدُ وُجُودَ وَصِحَّةَ مَا هُوَ مُمْتَنِعٌ عَقْلًا.

وَقَدْ زَعَمَ الْعَوْنِيُّ - هَدَاهُ اللَّهُ - أَنَّهُ مِنَ الْمُمْتَنِعِ عَقْلًا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ مَعَ كَوْنِهِمْ لَا يَعْتَقِدُونَ فِيهَا نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا عَقْلًا وَلَا سَمْعًا، هَذَا لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا مَنْ كَانَ الْقَلَمُ مَرْفُوعًا عَنْهُ، وَقَالَ: وَلِذَلِكَ لَا يُتَصَوَّرُ فِي حَقِّ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ بَذَلُوا مُهَجَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ تِلْكَ الْأَصْنَامِ أَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ فِيهَا سِوَى أَنَّهَا جَمَادَاتٌ لَا تَعْقِلُ، وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تَضُرُّ، وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا! هَكَذَا يَدَّعِي الْعَوْنِيُّ - عَفَا اللَّهُ عَنَّا وَعَنْهُ.

---

(١) مصدرُ شبهات العوني - هدانا الله وإياه -: مجالسُ في تحرير مفهوم العبادة له على (اليوتيوب)، وهذا رابط الوصول إليها:
https://www.youtube.com/playlist?list=PLMQtoa0AhxvIKGXqQRKkuCAW8Jzt3k11r

وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْمُمْتَنِعَ عَقْلًا لَا يَعْنِي امْتِنَاعَ وُجُودِ مَنْ يَعْتَقِدُ صِحَّتَهُ وَوُجُودَهُ وَوُقُوعَهُ، بَلْ قَدْ يَعْتَقِدُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ جَوَازَ وَوُقُوعَ وَوُجُودَ مَا هُوَ مُمْتَنِعٌ بِبَدَائِهِ الْعُقُولِ، وَهَذَا لَيْسَ بِقَلِيلٍ، بَلْ هُوَ كَثِيرٌ فِي النَّاسِ؛ تَرَاهُمْ يَعْتَقِدُونَ وُجُودَ أَشْيَاءَ تَقْطَعُ الْعُقُولُ - بَدَاهَةً - بِاسْتِحَالَتِهَا وَامْتِنَاعِهَا؛ فَانْظُرْ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ إِلَى الْمَلَاحِدَةِ الدَّهْرِيِّينَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ الْخَالِقِ، بَلْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْعَالَمَ قَدْ وُجِدَ مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ، وَأَنَّهُ تَشَكَّلَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ الْبَدِيعِ بِمَحْضِ الصُّدْفَةِ. وَهَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ كَثِيرُونَ جِدًّا، وَفِيهِمْ مِنْ أَسَاطِينِ وَعَبَاقِرَةِ عُلُومِ الطَّبِيعَةِ وَالْفِيزِيَاءِ وَالْفَلْسَفَةِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ مِمَّنْ يُعَدُّونَ مِنْ أَذْكِيَاءِ الْعَالَمِ.

وَانْظُرْ أَيْضًا إِلَى عَقِيدَةِ التَّثْلِيثِ عِنْدَ النَّصَارَى، وَهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَاعْتِقَادُهُمْ أَنَّ الْإِلَهَ الْقَائِمَ بِذَاتِهِ عِبَارَةٌ عَنْ أَقَانِيمَ ثَلَاثَةٍ، كُلُّ أُقْنُومٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِذَاتِهِ أَيْضًا، فَهِيَ أَقَانِيمُ ثَلَاثَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ أُقْنُومٌ وَاحِدٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ عَقْلًا، وَمَعَ ذَلِكَ يَعْتَقِدُهُ أَكْثَرُ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

وَانْظُرْ أَيْضًا إِلَى كَثِيرٍ مِنْ عَقَائِدِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الرَّبِّ ﷻ مِمَّا يَقْطَعُ الْعَقْلُ بِبُطْلَانِهَا وَامْتِنَاعِهَا؛ مِنْ ذَلِكَ عَقِيدَةُ الْأَشَاعِرَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي اللَّهِ

ﷻ؛ فَإِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَ دَاخِلَ الْعَالَمِ، وَلَا خَارِجًا عَنْهُ، وَلَا بَائِنًا مِنْهُ، وَلَا مُحَايِثًا لَهُ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ عَقْلًا، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُهُ جَمْعٌ غَفِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَشَاعِرَةِ وَأَسَاطِينِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ أَكْثَرَ النَّاسِ.

وَإِنَّ الْعَجَبَ كُلَّ الْعَجَبِ لِلْعَوْنِيِّ! فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَسْبَابَ وَدَوَافِعَ الشِّرْكِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ كَثِيرَةٌ غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ فِي اعْتِقَادِ النَّفْعِ وَالتَّأْثِيرِ فِي الْمَعْبُودِ، فَإِنَّ الْعَوْنِيَّ - هَدَانَا اللَّهُ وَإِيَّاهُ - حَصَرَ مَقْصِدَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ عِبَادَةِ الْآلِهَةِ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي اعْتِقَادِهِمُ النَّفْعَ وَالضُّرَّ فِيهَا، بَلْ وَزَعَمَ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي ذَلِكَ، وَهَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا؛ لِأَنَّ دَوَافِعَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْآلِهَةِ لَا تَنْحَصِرُ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الشِّرْكَ قَدْ يَقَعُ مُوَافَقَةً لِلْأَصْحَابِ، وَقَدْ يَقَعُ تَقْلِيدًا لِلْأَسْلَافِ، وَقَدْ يَقَعُ طَمَعًا فِي دُنْيَا، وَقَدْ يَقَعُ مُدَاهَنَةً، وَقَدْ يَقَعُ كِبْرًا وَتَرَفُّعًا.

وَقَدْ سَبَقَ نَقْلُ كَلَامِ أَبِي مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيِّ[1] فِي بَيَانِ بَعْضِ الدَّوَافِعِ الَّتِي دَفَعَتِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى عِبَادَةِ الْأَنْدَادِ مِنْ دُونِ اللَّهِ - تَعَالَى -؛ حَيْثُ قَالَ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا؛ طَلَبًا

(١) انظر: المطلب الرابع «ذِكْرُ بَعْضِ دَوَافِعِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى عِبَادَةِ الْآلِهَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ» في المبحث الثاني «بَيَانُ حَقِيقَةِ الشِّرْكِ».

لِلرِّيَاسَةِ وَالْعِزِّ وَالشَّرَفِ؛ كَقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مَرْيَم: ٨١]؛ فَأَخْبَرَ أَنَّ الْعِزَّ وَالشَّرَفَ لَيْسَ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ عِزُّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ، وَيَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، وَيَقُولُونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يُونُس: ١٨]؛ فَأَخْبَرَ أَنْ لَيْسَ فِي عِبَادَتِكُمْ هَذِهِ الْأَوْثَانَ دُونَ اللَّهِ لَكُمْ زُلْفَى، وَلَا ثَوَابٌ، وَلَكِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ؛ فَعِنْدَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ. وَالثَّالِثُ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا عَبَدُوا هَذِهِ الْأَصْنَامَ لِمَنَافِعَ يَتَأَمَّلُونَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالسَّعَةَ فِي الدُّنْيَا(١).

وَكَذَلِكَ فَإِنَّ تَقْلِيدَ الْأَسْلَافِ، وَتَعْظِيمَ عَادَاتِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ، وَالْهَيْبَةَ مِنْ مُخَالَفَةِ طَرِيقَتِهِمْ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الشِّرْكِ؛ فَتَأَمَّلْ إِخْبَارَهُ - تَعَالَى - عَنْ جَوَابِ الْأُمَمِ الْمُشْرِكَةِ السَّابِقَةِ لِأَنْبِيَائِهِمْ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزّخرُف: ٢٣-٢٤].

---

(١) تأويلات أهل السنة (٣/ ٣٨٣-٣٨٤).

وَمِنْ دَوَافِعِ الشِّرْكِ أَيْضًا الْمَوَدَّةُ وَمُوَافَقَةُ الْأَصْحَابِ وَالْأَحْبَابِ؛ فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ - تَعَالَى -: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٢٥].



الْمَطْلَبُ الثَّانِي:

بُطْلَانُ تَقْيِيدِ شِرْكِ الْعِبَادَةِ بِاعْتِقَادِ شَيْءٍ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي الْمَعْبُودِ:

إِنَّ تَقْيِيدَ شِرْكِ الْعِبَادَةِ بِاعْتِقَادِ شَيْءٍ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي الْمَعْبُودِ كَالنَّفْعِ وَالضُّرِّ وَالتَّأْثِيرِ بَاطِلٌ مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ:

أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلُّغَةِ وَالشَّرْعِ.

فَمِنْ أَيْنَ إِذًا جَاءَ الْعَوْنِيُّ بِأَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ لَا تَكُونُ شِرْكًا إِلَّا مَعَ اعْتِقَادٍ مَخْصُوصٍ فِي الْمَعْبُودِ؟ أَمِنَ اللُّغَةِ؟ أَمْ مِنَ الشَّرْعِ؟.

فَأَمَّا اللُّغَةُ: فَلَيْسَ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَكُونُ عِبَادَةً إِلَّا مَعَ اعْتِقَادِ شَيْءٍ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي الْمَعْبُودِ؛ بِكَوْنِهِ يَنْفَعُ وَيَضُرُّ - مَثَلًا -، أَوْ يَمْلِكُ التَّأْثِيرَ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ أَنَّ الْعِبَادَةَ فِي اللُّغَةِ هِيَ التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ لِلْمَعْبُودِ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ لَهُ وَالتَّعَبُّدِ[1]. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرِنُهُمَا بِالطَّاعَةِ؛ فَيَقُولُ: هِيَ التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ بِطَاعَةِ الْمَعْبُودِ.

---

(١) انظر: المطلب الأول «بَيَانُ مَعْنَى الْعِبَادَةِ» في المبحث الأول «بَيَانُ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ».

وَسَبَقَ أَيْضًا نَقْلُ قَوْلِ الْجَوْهَرِيِّ: وَأَصْلُ الْعُبُودِيَّةِ الْخُضُوعُ وَالذُّلُّ. وَالتَّعْبِيدُ: التَّذْلِيلُ؛ يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ. وَالْبَعِيرُ الْمُعَبَّدُ: الْمَهْنُوءُ بِالْقَطِرَانِ الْمُذَلَّلُ. وَالْعِبَادَةُ: الطَّاعَةُ. وَالتَّعَبُّدُ: التَّنَسُّكُ(١).

وَقَوْلِ الرَّاغِبِ: الْعُبُودِيَّةُ: إِظْهَارُ التَّذَلُّلِ، وَالْعِبَادَةُ أَبْلَغُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا غَايَةُ التَّذَلُّلِ، وَلَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا مَنْ لَهُ غَايَةُ الْإِفْضَالِ؛ وَهُوَ اللَّهُ - تَعَالَى(٢).

وَقَوْلِ أَبِي بَكْرِ بْنِ فُورَكَ: الْعِبَادَةُ: خُضُوعُ الْقَلْبِ(٣).

وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ: فَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ شِرْكَ الْمُشْرِكِينَ كَانَ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَبِاتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً صَرَفُوا لَهَا أَنْوَاعًا مِنَ الْعِبَادَاتِ(٤)؛ كَالدُّعَاءِ، وَالِاسْتِغَاثَةِ، وَالنَّذْرِ، وَالذَّبْحِ، وَالْعُكُوفِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ.

وَعَامَّةُ الْآيَاتِ فِيهَا إِطْلَاقُ الْعِبَادَةِ دُونَ ذِكْرِ اعْتِقَادِ الْعَابِدِ فِيهَا، وَفِي بَعْضِهَا ذِكْرُ اعْتِقَادِهِمُ الشَّفَاعَةَ، وَفِي أُخْرَى النَّصُّ عَلَى عَدَمِ اعْتِقَادِ النَّفْعِ

---

(١) الصِّحَاح، للجوهري (عبد).
(٢) المفردات في غريب القرآن ص (٣١٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن فورك (١/ ٢٣٨).
(٤) انظر: المطلب الثاني «بَيَانُ مَعْنَى الْإِلَهِ وَمَعْنَى اتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ ﷻ» في المبحث الأول «بَيَانُ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ».

وَالضُّرِّ فِيهَا، وَقَدْ سَبَقَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ.

الْوَجْهُ الثَّانِي:

يُقَالُ: لَوْ كَانَتِ الْعِبَادَةُ لَا تَكُونُ عِبَادَةً إِلَّا مَعَ الِاعْتِقَادِ فِي الْمَعْبُودِ، لَكَانَ السَّاجِدُ لِلصَّنَمِ وَالْوَثَنِ طَمَعًا فِي مَالٍ أَوْ جَاهٍ، أَوْ مُجَامَلَةً وَمُوَافَقَةً لِصَاحِبٍ أَوْ مَحْبُوبٍ، وَهُوَ يَعْتَقِدُ بُطْلَانَ ذَلِكَ - مُؤْمِنًا، لَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِشِرْكٍ، وَهَذَا مُخَالِفٌ لِلنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ؛ فَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ سَجَدَ لِصَنَمٍ، أَوْ عَكَفَ عَلَى وَثَنٍ، أَوِ اسْتَغَاثَ بِهِ، أَوْ تَمَسَّحَ بِالصَّلِيبِ، اخْتِيَارًا مِنْهُ مِنْ غَيْرِ إِكْرَاهٍ يَكُونُ مُشْرِكًا بِاللَّهِ أَعْظَمَ مَا يَكُونُ مِنَ الشِّرْكِ.

قَالَ - تَعَالَى -: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النَّحل: ١٠٦-١٠٧].

فَلَمْ يَسْتَثْنِ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي فِعْلِ الْكُفْرِ إِلَّا الْمُكْرَهَ.

وَمِثْلُهُ: مَنْ سَبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أَوْ مَدَحَ دِينَ الْمُشْرِكِينَ، أَوْ كَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ، أَوْ جَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ أَوْ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ؛ فَعَلَ ذَلِكَ بِلِسَانِهِ مُجَامَلَةً أَوْ مُحَابَاةً أَوْ طَمَعًا، وَهُوَ يَعْتَقِدُ فِي قَلْبِهِ بُطْلَانَ مَا قَالَهُ، فَإِنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا بِاللَّهِ.

وَانْظُرْ إِلَى إِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ مَنْ فَعَلَ الْكُفْرَ أَوْ قَالَهُ هَازِلًا يَكْفُرُ؛ مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾ [التَّوْبَة: ٦٥-٦٦].

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ: لَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ مَا قَالُوهُ مِنْ ذَلِكَ جِدًّا أَوْ هَزْلًا، وَهُوَ كَيْفَمَا كَانَ كُفْرٌ؛ فَإِنَّ الْهَزْلَ بِالْكُفْرِ كُفْرٌ، لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ[1].

وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ: وَاسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِالْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْجِدَّ وَاللَّعِبَ فِي إِظْهَارِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ سَوَاءٌ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ[2].

وَالْهَزْلُ ضِدُّ الْجِدِّ؛ فَالْهَازِلُ بِالْكُفْرِ يَفْعَلُ الْكُفْرَ مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادٍ فِيهِ، بَلْ لِأَجْلِ الْعَبَثِ وَالسُّخْرِيَةِ وَاللَّعِبِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ مَنْ فَعَلَ الْكُفْرَ أَوْ قَالَهُ سَاخِرًا لَاعِبًا كَفَرَ، وَلَوْ لَمْ يَعْتَقِدِ الْكُفْرَ أَوْ يَرْضَ بِهِ فِي قَلْبِهِ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ:

يُقَالُ: لَوْ كَانَ مَنَاطُ الْكُفْرِ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ

---

(١) أحكام القرآن، لابن العربي الأندلسي المالكي (٢ / ٥٤٣).
(٢) روح المعاني، للألوسي (١٠ / ١٣١).

وَغَيْرِ ذَلِكَ هُوَ الِاعْتِقَادَ فِيهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ نَفْعًا وَضَرًّا وَتَأْثِيرًا وَقُدْرَةً عَلَى تَحْقِيقِ سُؤْلِ سَائِلِهِمْ وَطَلَبِ عَابِدِهِمْ، لَكَانَتْ دَعْوَةُ الْأَنْبِيَاءِ لِأَقْوَامِهِمْ يَنْبَغِي أَنْ تَقُومَ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى إِفْرَادِ اللَّهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالتَّأْثِيرِ وَالتَّصَرُّفِ، لَا عَلَى دَعْوَتِهِمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَكَانَتِ الْكَلِمَةُ الَّتِي يَدْعُونَ إِلَيْهَا: (لَا رَبَّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا مُؤَثِّرَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَافِعَ وَلَا ضَارَّ إِلَّا اللَّهُ)، وَلَيْسَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) الَّتِي تَعْنِي: (لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ) عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ[١].

وَذَلِكَ أَنَّ اعْتِقَادَ التَّأْثِيرِ فِي غَيْرِ اللَّهِ، وَاعْتِقَادَ أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ يَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ النَّفْعِ وَالضُّرِّ كُفْرٌ مُسْتَقِلٌّ، وَلَوْ خَلَا مِنْ عِبَادَةِ الْمُعْتَقَدِ فِيهِ ذَلِكَ؛ فَلَوِ اعْتَقَدَ إِنْسَانٌ أَنَّ حَجَرًا مَا يَنْفَعُ وَيَضُرُّ، وَيَمْلِكُ التَّأْثِيرَ فِيمَنْ عَبَدَهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَوَجَّهْ إِلَيْهِ بِعِبَادَةٍ، بَلْ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ إِلَّا مُجَرَّدُ الِاعْتِقَادِ فِيهِ، لَكَانَ كَافِرًا بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ؛ بِسَبَبِ هَذَا الِاعْتِقَادِ، فَهُوَ إِشْرَاكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ.

فَمَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الشِّرْكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ اعْتِقَادِ النَّفْعِ وَالضُّرِّ أَوِ التَّأْثِيرِ فِي الْمَعْبُودِ، فَإِنَّ مَعْنَى كَلَامِهِ هَذَا: أَنَّ الْحُكْمَ يَدُورُ عَلَى الِاعْتِقَادِ فِي الْمَعْبُودَاتِ لَا عَلَى مُجَرَّدِ التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا وَطَلَبِهَا وَعِبَادَتِهَا، وَأَنَّ عِبَادَتَهَا بِدُونِ الِاعْتِقَادِ فِيهَا حَسَبَ زَعْمِ هَؤُلَاءِ لَا تَكُونُ شِرْكًا، وَعَلَى هَذَا

(١) انظر: المطلب الرابع «تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ دَعْوَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ وَمِحْوَرُ جَمِيعِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ» في المبحث الأول «بَيَانُ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ».

فَالْحُكْمُ عِنْدَهُمْ - بِنَاءً عَلَى قَوْلِهِمْ هَذَا - يَدُورُ حَوْلَ الِاعْتِقَادِ لَا الْفِعْلِ الصَّادِرِ مِنَ الْعَبْدِ، الَّذِي هُوَ الْعِبَادَةُ.

وَلِتَوْضِيحِ هَذِهِ الدَّعْوَى بِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَقُولُ: لَوْ عَبَدَ أَحَدٌ غَيْرَ اللَّهِ بِدُونِ اعْتِقَادٍ فِيهِ لَمْ يَكُنْ مُشْرِكًا، وَلَوِ اعْتَقَدَ فِيهِ بِدُونِ عِبَادَةٍ كَانَ مُشْرِكًا.

وَهَذَا الرَّأْيُ الْفَاسِدُ يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ الَّذِي أَوْضَحَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ إِنَّمَا بُعِثُوا بِالدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ، لَا إِلَى مُجَرَّدِ تَصْحِيحِ الِاعْتِقَادِ، وَأَنَّهُمْ دَعَوْا أَقْوَامَهُمْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ: (أَلَّا يُعْبَدَ إِلَّا اللَّهُ)، لَا إِلَى: (أَلَّا يُعْتَقَدَ فِي غَيْرِ اللَّهِ)، وَمِمَّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ - حَسَبَ مَا تَمَّ إِيضَاحُهُ - أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ ذَكَرَ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ إِقْرَارَ الْمُشْرِكِينَ بِتَفَرُّدِهِ - سُبْحَانَهُ - بِالنَّفْعِ وَالضُّرِّ، وَالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَالْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَالتَّدْبِيرِ وَالْمُلْكِ.

قُلْتُ: وَهَذَا يُؤَكِّدُ أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - شِرْكٌ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الِاعْتِقَادِ فِي الْمَعْبُودِ؛ فَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ سَجَدَ لِصَنَمٍ مُعْتَقِدًا فِيهِ الرُّبُوبِيَّةَ، وَمَنْ سَجَدَ لَهُ طَمَعًا فِي مَالٍ أَوْ جَاهٍ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ سَجَدَ لِقَبْرٍ مُعْتَقِدًا فِيهِ التَّأْثِيرَ، وَمَنْ سَجَدَ لَهُ مُجَامَلَةً لِأَمِيرٍ أَوْ سُلْطَانٍ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ أَحَلَّ الْحَرَامَ الْمُجْمَعَ عَلَيْهِ بِلِسَانِهِ طَاعَةً لِمَخْلُوقٍ مُعْتَقِدًا حِلَّهُ بِقَلْبِهِ، وَمَنْ أَحَلَّهُ بِلِسَانِهِ طَاعَةً لِمَخْلُوقٍ غَيْرَ مُعْتَقِدٍ حِلَّهُ بِقَلْبِهِ.

الْوَجْهُ الرَّابِعُ:

لَوْ قِيلَ: «لَا عِبَادَةَ إِلَّا مَعَ اعْتِقَادٍ» هَكَذَا بِإِطْلَاقِ الِاعْتِقَادِ، فَلَا إِشْكَالَ حِينَئِذٍ؛ إِذِ الْعَابِدُ يَذِلُّ وَيَخْضَعُ لِمَنْ يَعْتَقِدُ فِيهِ اسْتِحْقَاقًا لِلتَّعْظِيمِ، مَا لَمْ تَكُنْ عِبَادَتُهُ نِفَاقًا؛ بِحَيْثُ يُظْهِرُ الْعِبَادَةَ وَهُوَ كَافِرٌ بِهَا بِقَلْبِهِ، عَلَى أَنَّهُ حَتَّى فِي هَذِهِ الصُّورَةِ النِّفَاقِيَّةِ يَدْخُلُ فِي مَعْنَى الْعِبَادَةِ؛ فَإِنَّ إِظْهَارَ الْإِنْسَانِ عِبَادَةَ مَخْلُوقٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ - وَإِنْ كَانَ نِفَاقًا - يُسَمَّى عِبَادَةً لُغَةً وَشَرْعًا عَلَى مَا سَبَقَ تَوْضِيحُهُ[(١)]، لَكِنْ نَقُولُ: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ، وَتَحَقَّقَ مِنْهُ الذُّلُّ وَالْخُضُوعُ لِهَذَا الْمَعْبُودِ الْمُصَاحِبَانِ لِلتَّعْظِيمِ، فَهَذَا لَا يَنْفَكُّ عَنِ الِاعْتِقَادِ، لَكِنَّ الْإِشْكَالَ فِي تَقْيِيدِ الشِّرْكِ بِاعْتِقَادٍ مَخْصُوصٍ، لَا فِي إِطْلَاقِهِ؛ فَإِنَّ حَاتِمًا الْعَوْنِيَّ وَمَنْ وَافَقَهُ قَيَّدُوا الِاعْتِقَادَ بِاعْتِقَادِ النَّفْعِ وَالضُّرِّ فِي الْمَعْبُودِ أَوِ التَّأْثِيرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذَا هُوَ مَحَلُّ الْإِشْكَالِ، وَهُوَ بَاطِلٌ قَطْعًا بِنَصِّ الْقُرْآنِ الَّذِي بَيَّنَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ اعْتَقَدُوا فِيمَنْ عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ الشَّفَاعَةَ وَالْوَسَاطَةَ، وَلَمْ يَعْتَقِدُوا فِيهِمْ نَفْعًا، وَلَا ضَرًّا، وَلَا قُدْرَةً عَلَى التَّأْثِيرِ.

فَنَقُولُ حِينَئِذٍ: كُلُّ مَنْ ذَلَّ وَخَضَعَ لِمَخْلُوقٍ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ لَهُ فَقَدِ

---

(١) انظر: المبحث الأول «بَيَانُ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ».

اعْتَقَدَ فِيهِ وَلَا بُدَّ؛ فَيَكُونُ شِرْكُهُ حِينَئِذٍ بِعِبَادَةٍ مَصْحُوبَةٍ بِاعْتِقَادٍ فِي الْمَعْبُودِ، لَكِنْ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الِاعْتِقَادُ هُوَ اعْتِقَادَ النَّفْعِ وَالضُّرِّ فِي ذَاتِ الْمَعْبُودِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ اعْتِقَادَ كَوْنِهِ وَسِيلَةً؛ فَيَعْتَقِدُ أَنَّ عِبَادَتَهُ تُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ.

وَلِتَصْوِيرِ الْأَمْرِ: نَضْرِبُ مِثَالًا بِالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ، وَتَقْبِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ؛ فَنَحْنُ نَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَنُقَبِّلُ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَنَسْتَلِمُهُ لَا عَلَى سَبِيلِ التَّقَرُّبِ لِذَاتِ الْبَيْتِ أَوِ الْحَجَرِ، وَلَا عَلَى سَبِيلِ الطَّلَبِ مِنْهُمَا، أَوِ الِاعْتِقَادِ فِي كَوْنِهِمَا يَمْلِكَانِ نَفْعًا وَضَرًّا أَوْ تَأْثِيرًا، بَلْ نَطُوفُ بِالْبَيْتِ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ، وَنَسْتَلِمُ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِذَلِكَ، فَنَحْنُ نَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِهَذَا الطَّوَافِ وَذَاكَ التَّقْبِيلِ وَالِاسْتِلَامِ.

وَهَكَذَا كَانَ يَفْعَلُ الْمُشْرِكُونَ مَعَ مَعْبُودَاتِهِمْ؛ يَعْبُدُونَهَا لَا لِذَاتِهَا، وَلَا لِكَوْنِهَا تَنْفَعُ وَتَضُرُّ، بَلْ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ، يَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ رِضَاهُ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهَا تَشْفَعُ لِعَابِدِهَا عِنْدَهُ، كَمَا أَنَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ يَشْهَدُ لِمَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَكَذَا الطَّوَافُ وَالصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ، كُلُّهَا تَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا عِنْدَ اللَّهِ كَمَا جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ.

وَمِنْ هُنَا لَمْ يُسَمِّ الْمُشْرِكُونَ طَوَافَهُمْ بِالْبَيْتِ عِبَادَةً لِلْبَيْتِ، وَلَمْ يَدَّعُوا

أَنَّهُ إِلَهٌ، بَيْنَمَا سَمَّوْا أَصْنَامَهُمْ وَمَعْبُودَاتِهِمُ الْأُخْرَى آلِهَةً، وَسَمَّوْا تَوَجُّهَهُمْ إِلَيْهَا عِبَادَةً لَهَا؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ طَوَافَهُمْ كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ؛ لِأَنَّهُ الْآمِرُ بِذَلِكَ، بَيْنَمَا عِبَادَتُهُمْ لِأَصْنَامِهِمْ وَأَنْدَادِهِمْ لَمْ تَكُنْ بِأَمْرِهِ - سُبْحَانَهُ -، وَمِنْ هُنَا سَمَّوْهَا آلِهَةً، وَوَصَفُوا فِعْلَهُمْ تُجَاهَهَا بِكَوْنِهِ عِبَادَةً.

قَالَ الْمُعَلِّمِيُّ الْيَمَانِي: إِنَّ الْقَوْمَ كَانُوا يَحْتَرِمُونَ الْكَعْبَةَ أَبْلَغَ مِنِ احْتِرَامِ الْأَصْنَامِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُسَمُّوهَا إِلَهًا، وَلَا قَالُوا فِي احْتِرَامِهَا: إِنَّهُ عِبَادَةٌ لَهَا. وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِمَّنْ كَانَ يُشَغِّبُ مِنْهُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: كَيْفَ يَعِيبُ مُحَمَّدٌ عَلَيْنَا عِبَادَتَنَا لِلْأَوْثَانِ وَهُوَ وَأَصْحَابُهُ يَعْبُدُونَ الْكَعْبَةَ وَالْحَجَرَ الْأَسْوَدَ مَعَنَا؟. بَلْ كَانُوا يَقُولُونَ: الْكَعْبَةُ بَيْتُ اللَّهِ، وَاحْتِرَامُهَا عِبَادَةٌ لِلَّهِ. وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ بِنَاءَهَا وَاحْتِرَامَهَا مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - بِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ إِبْرَاهِيمَ ﵇. وَهَكَذَا يُقَالُ فِي عِبَادَتِهِمُ الْمَلَائِكَةَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُطْلِقُونَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ آلِهَةٌ، وَأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُمْ[(١)].

الْعَوْنِيُّ يَرُدُّ عَلَى نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ:

اسْتَدَلَّ الْعَوْنِيُّ فِي تَقْرِيرِهِ أَنَّ قَوْمَ إِبْرَاهِيمَ ﵇ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ فِي أَصْنَامِهِمُ النَّفْعَ وَالضُّرَّ بِدُعَائِهِمُ الْأَصْنَامَ؛ فَقَالَ: «يَعْنِي إِيش؟

---

(١) رفع الاشتباه، للمعلمي اليماني (ص: ١١٥).

يَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ: (كَيْفَ حَالُكِ) مَثَلًا؟ أَيَقُولُونَ: (انْصُرِينَا) وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تَشْعُرُ؟!».

فَأَقُولُ: هُوَ هُنَا يَرُدُّ عَلَى نَفْسِهِ، وَيُبْطِلُ قَوْلَهُ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُ: هَؤُلَاءِ الْقُبُورِيُّونَ الْيَوْمَ يَدْعُونَ الْأَمْوَاتَ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ، وَيَسْأَلُونَهُمْ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُمْ، فَإِنْ كَانَ دُعَاءُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَصْنَامِهِمْ وَآلِهَتِهِمْ دَلِيلًا عَلَى اعْتِقَادِهِمُ النَّفْعَ وَالضُّرَّ فِيهِمْ، فَمِثْلُهُ يُقَالُ فِي الْقُبُورِيِّينَ، فَدُعَاؤُهُمُ الْمَوْتَى دَلِيلٌ عَلَى اعْتِقَادِهِمُ النَّفْعَ وَالضُّرَّ فِيهِمْ، فَلِمَ نَفَى الْعَوْنِيُّ الْحُكْمَ عَنْهُمْ وَعَلَّقَهُ بِالِاعْتِقَادِ، مَعَ إِثْبَاتِهِ إِيَّاهُ لِقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُجَرَّدِ الْفِعْلِ؟! فَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا تَنَاقُضٌ وَاضِحٌ مِنْهُ.

وَحَتَّى لَوْ سَلَّمْنَا بِاعْتِقَادِ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّفْعَ وَالضُّرَّ فِيمَنْ عَبَدُوا، فَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ هُوَ اعْتِقَادَ جَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي الْقُرْآنِ، أَوِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا؛ فَإِنَّ الشِّرْكَ يَتَفَاوَتُ كَمَا أَنَّ الْكُفْرَ يَتَفَاوَتُ أَيْضًا.

فَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُشْرِكًا فِي الرُّبُوبِيَّةِ؛ كَمَا لَوِ اعْتَقَدَ شَرِيكًا لِلَّهِ فِي التَّدْبِيرِ، وَقَدْ يَكُونُ مُشْرِكًا فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ؛ كَمَا لَوِ اعْتَقَدَ لِلَّهِ شَرِيكًا فِي اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ أَوْ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وَقَدْ يَكُونُ مُشْرِكًا فِي الْأُلُوهِيَّةِ بِصَرْفِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَقَدْ

يَجْمَعُ بَيْنَ شِرْكَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ حَالُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ - بِنَاءً عَلَى مَا زَعَمَهُ حَاتِمٌ الْعَوْنِيُّ - أَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ بِاعْتِقَادِ التَّأْثِيرِ فِي غَيْرِ اللَّهِ، وَشِرْكِ الْعِبَادَةِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، وَهَذَا لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ مُشْرِكٍ.

وَمِثْلُهُ الْكُفْرُ: فَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَكِنَّهُ كَافِرٌ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَآخَرُ يَكُونُ كَافِرًا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْكُتُبِ وَالرُّسُلِ؛ فَيَكُونُ أَغْلَظَ كُفْرًا مِنَ الْأَوَّلِ.

فَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّ قَوْمَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اعْتَقَدُوا فِي أَصْنَامِهِمُ النَّفْعَ وَالضُّرَّ، فَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الِاعْتِقَادُ وَاقِعًا فِي قَلْبِ كُلِّ مُشْرِكٍ يَعْبُدُ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ قَيْدًا فِي الْحُكْمِ بِشِرْكِ الْعِبَادَةِ.

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ بَعْضَ دَوَافِعِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الشِّرْكِ[1]؛ مِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيُّ فِي بَيَانِ دَوَافِعِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الشِّرْكِ بِقَوْلِهِ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا؛ طَلَبًا لِلرِّيَاسَةِ وَالْعِزِّ وَالشَّرَفِ؛ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مَرْيَم: ٨١]؛

(١) انظر: المطلب الرابع «ذِكْرُ بَعْضِ دَوَافِعِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى عِبَادَةِ الْآلِهَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» في المبحث الثاني «بَيَانُ حَقِيقَةِ الشِّرْكِ».

فَأَخْبَرَ أَنَّ الْعِزَّ وَالشَّرَفَ لَيْسَ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ عِزُّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ، وَيَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، وَيَقُولُونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يُونُس: ١٨]؛ فَأَخْبَرَ أَنْ لَيْسَ فِي عِبَادَتِكُمْ هَذِهِ الْأَوْثَانَ دُونَ اللَّهِ لَكُمْ زُلْفَى، وَلَا ثَوَابٌ، وَلَكِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ؛ فَعِنْدَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ. وَالثَّالِثُ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا عَبَدُوا هَذِهِ الْأَصْنَامَ لِمَنَافِعَ يَتَأَمَّلُونَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالسَّعَةَ فِي الدُّنْيَا[1].

وَعَلَى مَا بَيَّنَّا فَإِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ كَانَ يَعْتَقِدُ فِيمَنْ عَبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ النَّفْعَ وَالضُّرَّ، وَهُمْ قِلَّةٌ. وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْتَقِدُ فِيهِمُ الشَّفَاعَةَ، وَهُمْ أَكْثَرُ الْمُشْرِكِينَ، وَلَا سِيَّمَا مُشْرِكِي الْعَرَبِ. وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ دُونِ اعْتِقَادٍ؛ كَالْمُقَلِّدِينَ، وَكَمَنْ يَطْلُبُ الرِّئَاسَةَ وَالْعِزَّ، وَكَمَنْ يَفْعَلُهُ تَكَبُّرًا، أَوْ يَفْعَلُهُ عَادَةً يَكْرَهُ تَرْكَهَا. وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالدَّوَافِعِ الْمُتَنَوِّعَةِ.



(١) تأويلات أهل السنة (٣/ ٣٨٣-٣٨٤).

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ:

الرُّبُوبِيَّةُ مَنَاطُ الْأُلُوهِيَّةِ:

الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ مَنَاطُ الْأُلُوهِيَّةِ؛ وَلِذَلِكَ يُقَرِّرُ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي الْقُرْآنِ اسْتِحْقَاقَهُ لِلْأُلُوهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ بِكَوْنِهِ الرَّبَّ الْخَالِقَ الْمَالِكَ الْمُدَبِّرَ الْمُتَصَرِّفَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَبِكَوْنِ مَا سِوَاهُ عَاجِزًا عَنْ ذَلِكَ، وَالْآيَاتُ فِي تَقْرِيرِ هَذَا كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا:

قَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الْبَقَرَة: ٢١-٢٢]. وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الْأَعْرَاف: ١٩١-١٩٢].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مَرْيَم: ٤١-٤٢].

وَقَوْلُهُ - تَعَالَى -: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ

إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٨-٨٩].

فَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَفِي نُصُوصِ الْعُلَمَاءِ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ مُسْتَلْزِمٌ لِتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ. بِمَعْنَى أَنَّ مَنْ أَقَرَّ بِالرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ - تَعَالَى - لَزِمَهُ أَنْ يُقِرَّ لَهُ بِاسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِسَبَبِ هَذَا الْأَمْرِ نَجِدُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ حَصَرُوا التَّوْحِيدَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَزَعَمُوا أَنَّ التَّوْحِيدَ إِثْبَاتُ كَوْنِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَاجِبَ الْوُجُودِ، أَوِ اعْتِقَادُ كَوْنِهِ الْخَالِقَ وَحْدَهُ، وَيُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِالْقَادِرِ عَلَى الِاخْتِرَاعِ، وَيَعُدُّونَ هَذَا الْوَصْفَ أَخَصَّ أَوْصَافِ الْإِلَهِ، لَكِنَّهُمْ لَا يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ مَنْ أَقَرَّ لِلَّهِ - تَعَالَى - بِالرُّبُوبِيَّةِ - كَالْخَلْقِ وَالنَّفْعِ وَالضُّرِّ - أَنَّهُ يَكُونُ مُوَحِّدًا بِذَلِكَ كَمَا فَهِمَهُ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ؛ بَلْ مُرَادُهُمْ: أَنَّ الْمَوْجُودَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ، اسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، وَمَنْ وَصَفَ شَيْئًا بِذَلِكَ لَزِمَهُ إِثْبَاتُ الْأُلُوهِيَّةِ لَهُ.

وَمِنْ هُنَا أَخْطَأَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنْهُمْ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْقُرُونِ الْأَرْبَعَةِ الْمَاضِيَةِ؛ حَيْثُ فَهِمُوا مِنْ كَلَامِ مُتَقَدِّمِيهِمْ بِأَنَّ أَخَصَّ أَوْصَافِ الْإِلَهِ الْقُدْرَةُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ أَوْ كَوْنُهُ وَاجِبَ الْوُجُودِ أَنَّ التَّوْحِيدَ مُنْحَصِرٌ فِيهِ، وَأَنَّ مَنْ أَقَرَّ بِهِ فَهُوَ الْمُوَحِّدُ.

لَكِنْ هُنَاكَ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ قَوْلِنَا: (إِنَّ الرُّبُوبِيَّةَ مَنَاطُ الْأُلُوهِيَّةِ) وَقَوْلِنَا: (لَا شِرْكَ إِلَّا فِي الرُّبُوبِيَّةِ).

فَالْقَوْلُ بِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ مَنَاطُ الْأُلُوهِيَّةِ لَا يَعْنِي أَنَّ التَّوْحِيدَ مُنْحَصِرٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ؛ بَلْ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يَنْتُجُ عَنْهُ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، فَإِنَّ إِفْرَادَ اللَّهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ فَرْعٌ عَنِ اعْتِقَادِ كَوْنِهِ الرَّبَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَعَلَى هَذَا: فَالشِّرْكُ يَقَعُ فِي الْأُلُوهِيَّةِ، وَلَوْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ شِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ؛ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ وَتَوْضِيحُهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَقَرُّوا لِلَّهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، لَكِنَّهُمْ أَشْرَكُوا فِي الْأُلُوهِيَّةِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ طَلَبًا لِلشَّفَاعَةِ[1]، مُعْتَقِدِينَ أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِهِ تُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَحَاتِمٌ الْعَوْنِيُّ يَبْدُو أَنَّهُ خَلَطَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؛ فَظَنَّ أَنَّ قَوْلَ مَنْ قَالَ: «الرُّبُوبِيَّةُ مَنَاطُ الْأُلُوهِيَّةِ» يَعْنِي أَلَّا شِرْكَ إِلَّا فِي الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ الشِّرْكَ فِي الْأُلُوهِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ شِرْكِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهَذَا خَطَأٌ كَبِيرٌ تَرُدُّهُ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَرُدُّهُ إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ.



(١) انظر: المطلب الرابع «ذِكْرُ بَعْضِ دَوَافِعِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى عِبَادَةِ الْآلِهَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ» في المبحث الثاني «بَيَانُ حَقِيقَةِ الشِّرْكِ».

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ:

الشَّوْكَانِيُّ وَدَعْوَى حَصْرِهِ الشِّرْكَ فِي الْعِبَادَةِ بِاعْتِقَادِ التَّأْثِيرِ فِي الْمَعْبُودِ:

زَعَمَ الْعَوْنِيُّ - عَلَى عَادَتِهِ - أَنَّ حَصْرَ شِرْكِ الْعِبَادَةِ بِاعْتِقَادِ التَّأْثِيرِ فِي الْمَعْبُودِ قَدْ نَصَّ عَلَيْهِ عَالِمُ الْيَمَنِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الشَّوْكَانِيُّ، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (١٢٥٠هـ).

وَقَدْ أَخَذَ الْعَوْنِيُّ هَذَا الزَّعْمَ مِنْ قَوْلِ الشَّوْكَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَبْلُغُنَا عَنْهُ[(١)] أَخْبَارٌ اللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهَا؛ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَسْتَحِلُّ دَمَ مَنِ اسْتَغَاثَ بِغَيْرِ اللَّهِ مِنْ نَبِيٍّ أَوْ وَلِيٍّ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ عَنِ اعْتِقَادِ تَأْثِيرِ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ كَتَأْثِيرِ اللَّهِ كُفْرٌ، يَصِيرُ بِهِ صَاحِبُهُ مُرْتَدًّا؛ كَمَا يَقَعُ فِي كَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَقِدِينَ لِلْأَمْوَاتِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَهُمْ قَضَاءَ حَوَائِجِهِمْ، وَيُعَوِّلُونَ عَلَيْهِ زِيَادَةً عَلَى تَعْوِيلِهِمْ عَلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - وَلَا يُنَادُونَ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - إِلَّا مُقْتَرِنًا بِأَسْمَائِهِمْ، وَيَخُصُّونَهُمْ بِالنِّدَاءِ مُنْفَرِدِينَ عَنِ الرَّبِّ، فَهَذَا أَمْرُ الْكُفْرِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا شُبْهَةَ، وَصَاحِبُهُ إِذَا لَمْ يَتُبْ كَانَ حَلَالَ الدَّمِ وَالْمَالِ كَسَائِرِ الْمُرْتَدِّينَ»[(٢)].

وَلَوْ أَعْمَلَ الْعَوْنِيُّ الْأُصُولَ الْعِلْمِيَّةَ الْمُعِينَةَ عَلَى فَهْمِ الْكَلَامِ، لَمَا

---

(١) أي: عن الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود، صاحب نجد في وقته.
(٢) البدر الطالع، للشوكاني (٢ / ٦).

ادَّعَى مِثْلَ هَذِهِ الدَّعْوَى، وَتَوْضِيحُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ الْعَامَّ كَانَ فِي مَعْرِضِ كَلَامِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابٍ يَذْكُرُ فِيهِ تَرَاجِمَ الْعُلَمَاءِ، وَيُعَرِّجُ عَلَى بَعْضِ الْوَقَائِعِ التَّارِيخِيَّةِ؛ وَهُوَ كِتَابُ «الْبَدْرُ الطَّالِعُ بِمَحَاسِنِ مَنْ بَعْدَ الْقَرْنِ السَّابِعِ»، وَالْكَلَامُ قَدْ يَكُونُ مُجْمَلًا فِي مِثْلِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْكُتُبِ.

وَالشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ لَهُ كِتَابٌ مَخْصُوصٌ فِي عَيْنِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فِي بَيَانِ تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ وَحَدِّ الشِّرْكِ فِيهَا؛ وَهُوَ «الدُّرُّ النَّضِيدُ فِي إِخْلَاصِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ»، فَمَا أُجْمِلَ هُنَالِكَ فُصِّلَ وَبُيِّنَ فِي هَذَا الْكِتَابِ.

فَقَدْ قَالَ الشَّوْكَانِيُّ فِي تَعْرِيفِ الشِّرْكِ وَذِكْرِ حَدِّهِ: «هُوَ دُعَاءُ غَيْرِ اللَّهِ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِهِ، أَوِ اعْتِقَادُ الْقُدْرَةِ لِغَيْرِهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ سِوَاهُ، أَوِ التَّقَرُّبُ إِلَى غَيْرِهِ بِشَيْءٍ مِمَّا لَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَّا إِلَيْهِ»[١].

وَقَالَ قَبْلَ ذَلِكَ: «وَإِخْلَاصُ التَّوْحِيدِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالنِّدَاءُ، وَالِاسْتِغَاثَةُ، وَالرَّجَاءُ، وَاسْتِجْلَابُ الْخَيْرِ، وَاسْتِدْفَاعُ الشَّرِّ لَهُ وَمِنْهُ، لَا لِغَيْرِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ»[٢].

فَالشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ بِأَنَّ دُعَاءَ الْمَوْتَى وَالِاسْتِغَاثَةَ بِهِمْ مُلَازِمٌ لِاعْتِقَادِ

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، للشوكاني (ص: ٧٠).
(٢) المصدر السابق (ص: ٦٧).

النَّفْعِ وَالضُّرِّ فِيهِمْ؛ فَلَا دُعَاءَ بِغَيْرِ اعْتِقَادٍ، وَهَذَا يَخْتَلِفُ عَنْ قَوْلِ الْعَوْنِيِّ - هَدَاهُ اللَّهُ - الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يُتَصَوَّرُ وُجُودُ دُعَاءِ الْمَيِّتِ وَالْغَائِبِ مَعَ عَدَمِ اعْتِقَادِ النَّفْعِ وَالضُّرِّ.

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ: «وَأَمَّا اعْتِقَادُهُمْ أَنَّهَا تَنْفَعُ وَتَضُرُّ، فَلَوْلَا اشْتِمَالُ ضَمَائِرِهِمْ عَلَى هَذَا الِاعْتِقَادِ لَمْ يَدْعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَيِّتًا أَوْ حَيًّا عِنْدَ اسْتِجْلَابِهِ لِنَفْعٍ أَوِ اسْتِدْفَاعِهِ لِضُرٍّ، قَائِلًا: يَا فُلَانُ افْعَلْ لِي كَذَا وَكَذَا، وَعَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ، وَأَنَا بِاللَّهِ وَبِكَ»[(١)].

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ قَالَ: «فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقُبُورِيِّينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - هُوَ الضَّارُّ النَّافِعُ، وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِيَدِهِ، وَإِنِ اسْتَغَاثُوا بِالْأَمْوَاتِ قَصَدُوا إِنْجَازَ مَا يَطْلُبُونَهُ مِنَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ.

قُلْتُ: وَهَكَذَا كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الضَّارُّ النَّافِعُ، وَأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِيَدِهِ، وَإِنَّمَا عَبَدُوا أَصْنَامَهُمْ؛ لِتُقَرِّبَهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى؛ كَمَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ»[(٢)].

وَيُؤَكِّدُ عَقِيدَتَهُ ﵀ فِي هَذَا الْأَمْرِ مَدْحُهُ وَثَنَاؤُهُ عَلَى دَعْوَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ ﵀ وَكُتُبِهِ وَعَلَى رَسَائِلِ مَنْ بَعْدَهُ فِي

---

(١) المصدر السابق (ص: ٧١).
(٢) المصدر السابق (ص: ٧٢).

التَّوْحِيدِ، وَمُوَافَقَتُهُ لَهَا.

فَقَدْ قَالَ فِي الْبَدْرِ الطَّالِعِ: «وَفِي سَنَةِ (١٢١٥هـ) وَصَلَ مِنْ صَاحِبِ نَجْدٍ الْمَذْكُورِ مُجَلَّدَانِ لَطِيفَانِ، أَرْسَلَ بِهِمَا إِلَى حَضْرَةِ مَوْلَانَا الْإِمَامِ - حَفِظَهُ اللَّهُ -، أَحَدُهُمَا يَشْتَمِلُ عَلَى رَسَائِلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ، كُلُّهَا فِي الْإِرْشَادِ إِلَى إِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ، وَالتَّنْفِيرِ مِنَ الشِّرْكِ الَّذِي يَفْعَلُهُ الْمُعْتَقِدُونَ فِي الْقُبُورِ، وَهِيَ رَسَائِلُ جَيِّدَةٌ، مَشْحُونَةٌ بِأَدِلَّةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْمُجَلَّدُ الْآخَرُ يَتَضَمَّنُ الرَّدَّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُقَصِّرِينَ مِنْ فُقَهَاءِ صَنْعَاءَ وَصَعْدَةَ، ذَاكَرُوهُ فِي مَسَائِلَ مُتَعَلِّقَةٍ بِأُصُولِ الدِّينِ وَبِجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَأَجَابَ عَلَيْهِمْ جَوَابَاتٍ مُحَرَّرَةً مُقَرَّرَةً مُحَقَّقَةً، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُجِيبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ الْعَارِفِينَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَقَدْ هَدَمَ عَلَيْهِمْ جَمِيعَ مَا بَنَوْهُ، وَأَبْطَلَ جَمِيعَ مَا دَوَّنُوهُ؛ لِأَنَّهُمْ مُقَصِّرُونَ مُتَعَصِّبُونَ؛ فَصَارَ مَا فَعَلُوهُ خِزْيًا عَلَيْهِمْ، وَعَلَى أَهْلِ صَنْعَاءَ وَصَعْدَةَ، وَهَكَذَا مَنْ تَصَدَّرَ وَلَمْ يَعْرِفْ مِقْدَارَ نَفْسِهِ»(١).

وَقَالَ عَنِ الْإِمَامِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُعُودٍ: «وَقَدْ رَأَيْتُ كِتَابًا مِنْ صَاحِبِ نَجْدٍ، الَّذِي هُوَ الْآنَ صَاحِبُ تِلْكَ الْجِهَاتِ، أَجَابَ بِهِ عَلَى بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَدْ كَاتَبَهُ وَسَأَلَهُ بَيَانَ مَا يَعْتَقِدُهُ، فَرَأَيْتُ جَوَابَهُ مُشْتَمِلًا

---

(١) البدر الطالع، للشوكاني (٢ / ٧).

عَلَى اعْتِقَادٍ حَسَنٍ، مُوَافِقٍ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»(١).

وَقَالَ: «وَمَا زَالَ الْوَافِدُونَ مِنْ سُعُودٍ(٢) يَفِدُونَ إِلَيْنَا إِلَى صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَةِ الْإِمَامِ الْمَنْصُورِ، وَإِلَى حَضْرَةِ وَلَدِهِ الْإِمَامِ الْمُتَوَكِّلِ بِمَكَاتِيبَ إِلَيْهِمَا بِالدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَهَدْمِ الْقُبُورِ الْمُشَيَّدَةِ، وَالْقِبَابِ الْمُرْتَفِعَةِ، وَيَكْتُبُ إِلَيَّ أَيْضًا مَعَ مَا يَصِلُ مِنَ الْكُتُبِ إِلَى الْإِمَامَيْنِ، ثُمَّ وَقَعَ الْهَدْمُ لِلْقِبَابِ وَالْقُبُورِ الْمُشَيَّدَةِ فِي صَنْعَاءَ، وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْكِنَةِ الْمُجَاوِرَةِ لَهَا، وَفِي جِهَةِ ذَمَارٍ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا»(٣).

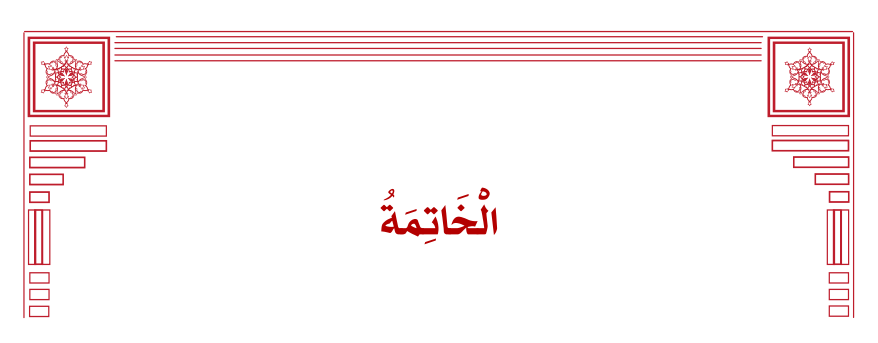


---

(١) المصدر السابق (٢ / ٦ - ٧).

(٢) هو سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود.

(٣) البدر الطالع، للشوكاني (١ / ٢٦٢ - ٢٦٣).



الْخَاتِمَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَتِمُّ بِنِعْمَتِهِ الصَّالِحَاتُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ الْأَمِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَبَعْدُ: فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيَّ فِي خَاتِمَةِ رِسَالَتِي هَذِهِ إِكْمَالًا لِلنَّفْعِ وَالْفَائِدَةِ أَنْ أَرْصُدَ أَهَمَّ النَّتَائِجِ الَّتِي تَوَصَّلْتُ إِلَيْهَا؛ وَذَلِكَ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي:

١- جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بُعِثُوا بِالدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ وَإِفْرَادِ اللَّهِ ﷻ بِهَا، وَتَرْكِ الْإِشْرَاكِ فِيهَا، وَلَمْ يُبْعَثُوا بِالدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ وَهُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِأَفْعَالِهِ؛ كَالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، وَالنَّفْعِ وَالضُّرِّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

٢- الْمُشْرِكُونَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِتَفَرُّدِ اللَّهِ ﷻ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَفَرُّدُهُ بِالنَّفْعِ وَالضُّرِّ وَالتَّأْثِيرِ، بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ.

٣- اللَّهُ ﷻ أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ اتَّخَذُوا آلِهَةً مَعَهُ فِي

الْعِبَادَةِ، حَيْثُ صَرَفُوا لَهَا أَنْوَاعًا مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَلَمْ يَنْفِ اللَّهُ - تَعَالَى - عَنْ مَعْبُودَاتِ الْمُشْرِكِينَ اسْمَ الْآلِهَةِ، لَكِنَّهُ نَفَى اسْتِحْقَاقَهَا لِلْأُلُوهِيَّةِ.

٤- الْإِلَهُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ هُوَ الْمَعْبُودُ، سَوَاءٌ عُبِدَ بِحَقٍّ أَوْ بِبَاطِلٍ؛ وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَنْتَفِ اسْمُ الْآلِهَةِ عَمَّا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﷻ.

٥- مَعْنَى اتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ ﷻ أَنَّهُمْ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، وَأَشْرَكُوا مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ غَيْرَهُ، لَا أَنَّهُمُ اعْتَقَدُوا فِي غَيْرِ اللَّهِ مَا هُوَ مِنْ أَفْعَالِهِ أَوْ صِفَاتِهِ ﷻ.

٦- عِبَادَةُ الْمُشْرِكِينَ لِلْآلِهَةِ كَانَتْ بِخُضُوعِهِمْ وَذُلِّهِمْ لَهَا عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ لَهَا وَالتَّعَبُّدِ وَالتَّأَلُّهِ دُونَ التَّقَيُّدِ بِاعْتِقَادٍ مَخْصُوصٍ فِيهَا.

٧- عِبَادَةُ غَيْرِ اللَّهِ ﷻ شِرْكٌ بِهِ، مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنِ اعْتِقَادِ الْعَابِدِ فِيمَنْ عَبَدَ.

٨- أَكْثَرُ الْمُشْرِكِينَ لَا يَعْتَقِدُونَ فِي مَعْبُودَاتِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ كَوْنِهَا تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ، وَالْقَلِيلُ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْتَقِدُ فِيهَا نَفْعًا وَضَرًّا وَتَأْثِيرًا.

٩- الشِّرْكُ يَكُونُ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ﷻ، وَلَوْ لَمْ يَعْتَقِدِ الْعَابِدُ فِيمَنْ أَلَّهَهُ وَعَبَدَهُ شَيْئًا؛ كَمَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ طَلَبًا لِلشَّرَفِ وَالرِّئَاسَةِ، أَوْ طَمَعًا فِي دُنْيَا أَوْ مَالٍ، أَوْ تَكَبُّرًا، أَوْ مُجَامَلَةً وَمَوَدَّةً لِلْأَصْحَابِ وَالْأَحْبَابِ، أَوْ تَقْلِيدًا

وَتَعْظِيمًا لِلْأَسْلَافِ.

١٠- تَقْيِيدُ الشِّرْكِ فِي الْعِبَادَةِ بِاعْتِقَادِ التَّأْثِيرِ فِي الْمَعْبُودِ يُبْطِلُهُ الْقُرْآنُ وَالْإِجْمَاعُ وَالتَّارِيخُ وَالْوَاقِعُ.

١١- أَكْبَرُ أَسْبَابِ الشِّرْكِ وَدَوَافِعِهِ هُوَ اعْتِقَادُ الشَّفَاعَةِ فِي الْمَعْبُودِ؛ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا الِاعْتِقَادُ نَوْعٌ مِن اعْتِقَادِ النَّفْعِ فِي الْمَعْبُودِ، وَهُوَ النَّفْعُ بِالشَّفَاعَةِ وَالْوَسَاطَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي زَعْمِهِمْ.

هَذَا مَا تَيَسَّرَ جَمْعُهُ وَتَرْتِيبُهُ وَبَيَانُهُ بِمَنِّ اللَّهِ وَكَرَمِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مُتَلَازِمَيْنِ، إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.





فِهْرِسُ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ

- القرآن الكريم.

- أحكام القرآن، للقاضي أبي بكر بن العربي الأندلسي المالكي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٠٠٣م/ ١٤٢٤هـ).

- اشتقاق أسماء الله، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، (١٤١٨هـ).

- بحر العلوم، لأبي الليث السمرقندي الحنفي، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود،

والدكتور زكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

- تأويلات أهل السنة، لأبي منصور الماتريدي، تحقيق د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

- تجريد التوحيد المفيد، للإمام أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي، اعتنى به علي بن محمد العمران، طَبْع ونَشْر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).

- التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المعروف بابن جزي الكلبي الغرناطي، ضبطه وصححه وخرج آياته محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- تفسير أسماء الله الحسنى، لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج النحوي، تحقيق أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، بدمشق، وبيروت، (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م).

- تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، (١٩٨٤م).

- تفسير الطبري، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

- تفسير الفخر الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

- تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

- تفسير القرآن العزيز، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق أبي عبد الله حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، دار الفاروق الحديثة، القاهرة (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).

- تفسير القرآن العظيم، لأبي بكر محمد بن الحسن بن فورك، من

أول سورة (المؤمنون) إلى سورة (الأحزاب)، دراسة وتحقيق علال عبد القادر بندويش، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

- تفسير المراغي، للشيخ أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م).

- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق عبد السلام محمد هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).

- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).

- درء تعارض العقل والنقل، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة

الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

- الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، للإمام محمد بن علي الشوكاني، علق عليه وخرج أحاديثه أبو عبد الله الحلبى، دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع، (١٤١٤هـ).

- رسالة (معنى العبادة والإخلاص) لعبد الله بن عبد الرحمن أبابطين، ضمن مجموعة التوحيد (١/ ١٦٢)، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، الرياض، (١٤١٣هـ).

- رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله وتحقيق معنى التوحيد والشرك بالله، للعلَّامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، تحقيق عثمان بن معلم محمود بن شيخ علي، تمويل مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة، (١٤٣٤هـ).

- روح البيان في تفسير القرآن، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، إدارة الطباعة المنيرية

بالقاهرة، دار إحياء التراث العربي ببيروت.

- سنن ابن ماجه، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

- سنن أبي داود، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

- سنن الترمذي، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

- السير والمغازي، لمحمد بن إسحاق، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨).

- شبهات المبتدعة في توحيد العبادة، للدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الهذيل، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، (١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م).

- شرح العقيدة الطحاوية، للقاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي والشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

- الصِّحَاح، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت، (١٩٩٠م).

- صحيح البخاري، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

- صحيح مسلم، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

- العبودية، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق علي حسن عبد الحميد، دار الأصالة، الزرقاء، الأردن، (١٤١٢هـ).

- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة (١٣٠٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق وتعليق ودراسة عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

- كشف ما ألقاه إبليس من البَهْرَج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس، تأليف عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله الزير آل حمد، دار العاصمة للنشر والتوزيع،

الرياض، (١٤١٥هـ).

- الكشف والبيان، لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، دراسة وتحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).

- لسان العرب، لابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.

- متن القصيدة النونية، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (١٤١٧هـ).

- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، وابنه محمد، طَبْع مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

- مختار الصِّحَاح، للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر

الرازي، تحقيق لجنة من علماء العربية، عُنِيَ بترتيبه محمود خاطر، دار المعارف بالقاهرة.

المعجم الكبير، للطبراني، حققه وخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

- المِلَل والنِّحَل، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة، بيروت، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).

- الهداية إلى بلوغ النهاية، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، مجموعة رسائل جامعية قامت بمراجعتها وتدقيقها وتهيئتها للطباعة مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).

- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم بدمشق والدار الشامية ببيروت، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).



فِهْرِسُ الْمُحْتَوَيَاتِ

العنوان **الصفحة**

